روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

3

Looloo
www.dvd4arab.com

كلاب جائعة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

قبـل الحكاية

أنا اسمى .. بصراحة لن أقول .. وليكـن اسم التدليل (توتة) .. لن أتحدث عن نفسى : الطول ، العرض ، اللون ، القوام ، العينان ، السن ، باختصـار متوسطة الجمال ، سمرتى فى لون فيضان النيل ، من قلب مصر ، بدأت العمل فى جريدة الصبر منذ تخرجى ، ربما التقيت أنا وأى واحد منكم ، أمـام الأوبرا ، المسرح ، فى ميدان التحريـر ، المينـى باص ، حتى فى القسم ، وربما ترانى أجرى خلف الأوتوبيس وألعن السـائق الـذى «زوغ » مـن المحطة ، وعلى العموم إن لم ترنى اليـوم ، ربمـا نلتقى غدًا .

(توتة)

١ ـ محاولة فاشـلة ..

تعلو صفارة المنبـه المزعجة برتابتهـا المتواصلـة ، كطنين ذبابة لحوح ، أتململ ، أتقلب يمينًا ويسارًا ، تـدور الأسئلة فـى رأسى : كم السـاعة ؟ مـاذا أفعل ؟ أيـن أذهـب ؟ أكتـم بـإصبعى أنفاس المنبه ، قبل أن أواصل رحلة النوم .. يأتينى صوت أمـى معلنًا غضبها لنومى الثقيل أو كما تقول « غاوية نوم » .. أدفع الغطاء بتكاسل ، أرمى المنبه بنظرة استفسار ، فـإذا بـه يخـرج لسانه معلنًا الثامنة والنصف صباحًا « يا خبر أبيض » .. ميعـاد الدكتور (على حليم) .. أرتدى ثيابى على عجل ، تعد أمى كوب الشاى ممزوجًا بـالحليب ، بجواره أقراص محشوة بالعجـوة ، تصنعها أمى لنا باستمرار ، أحدثها بجزع :

ـ تأخرت يا ماما .

تجيب بنرفزة :

ـ كل يوم تأخير .. تأخير .

تواصل سيل غضبها المبرمج إلى كلمـات متلاحقـة تطـاردنى كالحجارة وأنا أهبط الـدَّرج ، أستقل « ميكروبـاص » إلـى قلـب

ميدان الجيزة ، أتسابق مع الزمن ، أستجمع الأسئلة فى رأسى ، أستقبل « ميكروباصًا » آخر من ميدان الجيزة إلى السيدة عائشة ، أهبط فى المنيل ، أسير إلى فيلاّ د. (على) ، أسأل بعض المارة ، أخيرًا أهتدى إليها ، كلاسيكية الشكل ، تعد تحفة معمارية ، أتابعها وأنا واقفة أمام الباب الخارجى ، أدق الجرس وعقارب الساعة تقترب من التاسعة ، أنتظر لحظات ، يسير رجل قصير القامة على الممر المبلط المؤدى إلى الباب ، يدنو منى ، غائر العينين مستدير الوجه ، ظلال النوم باقية على وجهه :

ـ أفندم .

ـ صباح الخير .. أنا صحفية من جريدة « الصبر » على موعد مع د. (على) .

يتفرسنى بتعجب :

ـ آسف يا أستاذة ، الدكتور نائم .

يتملكنى الغيظ :

ـ لقد أخبرنى بالتليفون عن هذا الموعد .

ببرود أجاب :

ـ الدكتور نائم .

بحيرة أسأله :

ـ وما العمل الآن ؟

يصمت لبرهة يتأملنى فيها ، ينظر فى ساعته .

ـ دقيقة واحدة .

يتحرك أمامى على الممر المبلط ، يصعد بعض الدرج ، يغيب داخل الفيلاّ ، الحديقة يكسوها الزرع والورد والرياحين ، يصطدم بصرى بكشك خشبى على بعد أمتار من الباب ، ينفد صبرى ، بينى وبين نفسى ، ألعن هذا الخادم والدكتور على الذى لم يصدق إلى الآن معى فى موعد أبدًا ، خمس مرات وفى كل مرة يعتذر تليفونيًا ، وأمس يؤكد الموعد .. و « أقطع » هذه المسافة من الهرم إلى هنا بين ركوب وسير ، وأصل بالدقيقة والثانية لأرى وجه هذا القصير الذى يقول لى : « الدكتور نائم » .

يطل بطلعته البهية قائلاً :

ـ معذرة يا أستاذة ، لقد ترك الدكتور ورقة على المكتب يؤجل الموعد إلى التاسعة مساءً .

قبل أن أتحدث بحرف يقول :

ـ بعد إذنك .

ويعود من حيث أتى ، يدفعنى الغيظ إلى السير ، أجمل ما فى السير هو تفريغ الشحنة الانفعالية المحبوسة بداخلى ، والتخلص من الحسرة على الأقراص المحشوة بالعجوة وكوب الشاى بالحليب .

* * *

٢ ـ الزيارة الأولى ..

أصل إلى فيلاّ الدكتور (على حليم) فى التاسعة مساء ، وصورة أمى لا تفارق مخيلتى ، علامات وجهها الغاضب لتأخرى ليلاً محذرة « فى العاشرة تكونين فى البيت » ومأساة العودة ، والمشادة الكلامية مع أمى ، وتهديدها لى بالبقاء فى البيت حتى يأتى « ابن الحلال » وتستريح من وجع الدماغ ..

أطرد صورة أمى من رأسى ، وأنا أضغط زر الجرس بقسوة ، لحظات ويفتح الباب ، أنتظر بنفاد صبر .. يطل القصير ، يرفع فانوسًا فى يده :

ـ تفضلى يا أستاذة ، الدكتور فى انتظارك .

الحديقة غائبة فى سواد الليل ، تنسكب أضواء منزل قريب ، ولكنها لا تكفى لرؤية ملامح الحديقة ، سوى السور العالى المحيط بها ، نسير على ممر مبلط ، بتهكم أتساءل :

ـ لماذا لا يضىء الدكتور جزءًا من الحديقة ؟

بصوت جاف يجيب :

ـ الدكتور لا يحب المتطفلين من الجيران والصحفيين .

يعلو سلم صغير يتكون من ثلاث درجات ، ينحرف يسارًا ، أتبعه ولا حول ولا قوة لى ، ينقر بخفة باب الغرفة ، ألمح الدكتور جالسًا خلف مكتبه منهمكًا فى القراءة ، يفتح الخادم الباب برفق ، يسبقنى للداخل ، يضىء الحجرة ، بينما الدكتور يطفىء أباجورة المكتب ، ويخرج من الباب الآخر المؤدى إلى داخل الفيلاّ ، يغادر الدكتور مكتبه تاركًا ما فى يده من أوراق ، أرى نفسى أمام رجل عملاق البنية ـ بسم اللّه ما شاء اللّه ـ يدنو من أواخر الأربعينيات ، هادئ الصوت كأنه نابع من إنسان رقيق :

ـ مرحبًا يا أستاذة ، تفضلى بالجلوس هنا .

التفتّ إلى حيث يشير ، ركن فى أقصى الحجرة به مقعدان بينهما منضدة صغيرة مستديرة عليها منفضة سجائر ، يتركنى أسير إلى المقعدين وينهمك فى تجميع أوراق كثيرة يضعها فى درج المكتب ، يغلقه بالمفتاح ، ينظر فى ساعته ، يسألنى :

ـ فى أى جريدة تعملين يا أستاذة ؟

ـ جريدة الصبر للأستاذ (صابر أيوب) .

ينفجر ضاحكًا .

ـ كان اللّه فى عونك .

يقترب من الباب المؤدى إلى الفيلاّ :

ـ دقائق وأعود .

آه من هذه الدقائق ، يا دكتور الوقت لا يحتمل دقيقة وقت ضائع ، تتجمع الدقائق ، خمس .. عشر .. ربع ساعة ، يتسرب الضيق إلى صدرى ، أتحرك فى الحجرة كالقط الحبيس ، أتأمل الكتب التى تغرق الجوانب الأربعة ، وارتفاع المكتبة يصل إلى السقف الذى ارتفاعه خمسة أمتار ، هذه الحجرة وحدها غرفتان طولاً وعرضًا ، المكتب ضخم جدًا حتى المقعدين اللذين أمامه كأنهما بعثا من القرن التاسع عشر إلى هنا مباشرة ، وفى أقصى اليمين من المكتب شرائط الفيديو وشرائط الكاسيت ، وجهاز الفيديو والتليفزيون والمسجل وحدة متكاملة ، بدأت أستشعر البرد ، الآن أحتاج إلى كوب شاى بالحليب ، أين أنت يا أمى ؟ فى البيت طبعًا لا لا سأفكر فى .. يقطع شرودى قدوم الدكتور ، عيناه جامدتان كقطع الشمع ، تتحرك ببطء شديد ، عيناه مثبتتان علىّ لدرجة أرعبتنى ، يتجه إلى مكتبه :

ـ آسف لتأخيرى ، تليفون عاجل جدًا ، البشر يتحدثون ، لا يملكون إلا الثرثرة ، حتى السياسيون ورجال الأعمال ، هل أعجبتك غرفة مكتبى ؟ عندما تصبحين صحفية مرموقة ستجلسين بين زملائك وتضعين ساقًا على الأخرى ، وتقولين إنك الصحفية الوحيدة التى جاءت إلى هنا (يدق وجه المكتب) ،

وتحدثت مع الدكتور (على حليم) ورأت مكتبه ومكتبته الفخمة التى لا يملك مثلها إلا قلة قليلة ، وإن كان هناك من يملكها فهى للزينة والديكور أما هنا (يدق وجه المكتب مرة) فهى للعلم ، هذا محراب من محاريب العلم .. ماذا تشربين ؟

ـ لا شىء ، أفضل أن نبدأ الحديث .

ـ كما تشائين .

نعود إلى المقعدين :

يقعد أمامى يضع ساقًا على الأخرى ، يدخن سيجارًا ، أخرج دفترى وقلمى ، فأنا أرفض عملية التسجيل ، فتفريغ الشريط يجهدنى كثيرًا وبينى وبين القلم وُدّ كبير :

ـ أريد أن أتحدث معك حول ..

تنطلق صرخة مدوية ، تفزعنى لدرجة أننى « انتفضت » من فوق المقعد وتناثرت الأشياء حولى ، يهرع الدكتور إلى الخارج ، يلقى بكلمة واحدة :

ـ ثانية واحدة .

كأنه يلقى بورقة فى صندوق القمامة ، تاركًا الباب مفتوحًا ، الظلام يحبسنى فى مكانى ، فلم أجد بدًا من جمع أشيائى المتناثرة داخل الحقيبة ، أفكر فى التقدم خطوة ، ولكننى أتراجع ، أخشى

أن يبتلعنى الظلام وأفقد خطوات العودة إلى مكانى .. وحسى الصحفى يشد من أزرى .. التفت إلى باب الحديقة ، أحس أن الكون يغوص فى الظلام ، يدخل الدكتور فى هذه اللحظة متسائلاً :

ـ أتفكرين فى الخروج ؟

أتعثر قليلاً :

ـ لا .. ولكن .

إنه يحاول التماسك ووجهه يدل على أنه كان يخوض معركة مع شىء رهيب ، شاحب الوجه ، عيناه تطاردنى ، يعتذر :

ـ آسف يا أستاذة ، يمكننا استكمال الحوار فى وقت آخر ، عندى ظروف طارئة .

يبسط يده مصافحًا ، أبتسم وأنا أصافحه :

ـ هل يمكننى المساعدة ؟

يحتد قائلاً :

ـ الوقت لا يحتمل المجاملات .

قبل أن ألفظ نصف حرف ، وجدته يجرنى إلى الخارج ، كأننى طفل مرغم على السير خلف أبيه ، أجد نفسى وحيدة وأمامى الممر المبلط إلى الخارج ، يصفق الباب خلفه محذرًا :

ـ عليك السير إلى الباب مباشرة .

تصيبنى كلماتـه بسهام الشك ، مع كل خطوة على الممر أسأل نفسى .. مع مَنْ يعيش ؟ ماذا حدث داخل هذه الفيلاّ ؟ مَنْ الذى صرخ ؟ الخادم أم هناك شخص آخر ؟ لو كان الأمر طبيعى لماذا انزعج الدكتور كل هذا الانزعاج ؟ آآه .. ارتطمت قدمى بالباب الخارجى .. وإذا بصوت الدكتور مرتفعًا :

ـ ماذا أصابك ؟

أنتفض ، ألتفت إليه ، أكان واقفًا طوال هذا الوقت ؟ أسرع بالإجابة :

ـ ارتطمت قدمى بالباب ، الدنيا « كُحل » لا أرى شيئًا .

يهرول ناحيتى ، ينفض على الباب بأنفاسه اللاهثة يحل السلسلة الحديدية ويفكها بعصبية شديدة قائلاً :

ـ أراكِ فيما بعد .. وداعًا .

هذه المرة لم ينتظر كلمات وداعى ، وعاد يغلق الباب من جديد وصوت السلسلة يتخلخل من جديد ، أتنسم الهواء البارد ، أدور حول الفيلاّ ، أنظر إلى ارتفاع السور ، أرى سيارة تعلو الرصيف لايفرق بينها وبين السور إلا سنتيمترات قليلة .. وبلاشعور أصعد فوقها ، كدتُ أمسك حافة السور ، استرعى

انتباهى فى آخر لحظة الزجاج المكسور والمرشوق فوق السور ، أضغط برفق عليه ؛ لأرى أين ذهب الدكتور ؟ لا شىء يدل على الحياة داخل الفيلاّ ، لحظات ساكنة لا أسمع سوى دقات قلبى الخائف ، أصابع اليأس تتسلل لخنق عزيمتى .. ها هو ذا الدكتور يخرج من باب الفيلاّ الرئيسى يجر كلابًا ويقيدها فى السور وينهال عليها ضربًا ، ولا صوت للكلاب !! ثم يعود للداخل ، تاركًا الكلاب تخمش الأرض محاولة التخلص من القيود .. أتساءل : « كلاب بلا صوت ؟ » أهبط من فوق السيارة إلى الأرض ، أطل فى الساعة عند أول عمود إنارة ، يا نهار أبيض !! ماما ستعزف السيمفونية التاسعة على هذا التأخير .

* * *

ها هو ذا الدكتور يخرج من باب الڤيلاّ الرئيسى ، يجر كلابًا ويقيدها فى السور ، وينهال عليها ضربًا ، ولا صوت للكلاب !!

٣ ـ عم حسونة ..

الدكتور (على حليم) لغز يقلقنى ، فى البدء كان تكليف من رئيس التحرير الأستاذ (صابر أيوب) بعمل تحقيق عن الهندسة الوراثية والاستنساخ ، وقمت بجمع العديد من الآراء من علماء الدين وأعضاء هيئة التدريس بكلية الطب المتخصصين فى هذا الأمر ، وعند خروجى من قصر العينى استوقفنى ساعى د. (محمد أحمد) عميد الكلية قائلاً :

ـ يا أستاذة .. اذهبى إلى الدكتور (على حليم) ..

ـ أتعرف الموضوع ؟

ـ نعم .. الهندسة الوراثية .

ـ لا أذهب لأحد .. متى يأتى إلى الكلية ؟

ـ استقال منذ شهور ، وهو الوحيد الذى يمكنه أن يفجر تحقيقك الصحفى .

وانتهى اللقاء بينى وبين الساعى ، على أن يظل هذا الأمر سرًا بيننا ، وتناولت منه الورقة المدون بها رقم التليفون والعنوان .

وهأنذا أبحث فى الكلية عن هذا الساعى .. قال أحد زملائه السعاة :

ـ يعمل الآن فى مكتب شئون العاملين .

وامتد انتظارى لمدة نصف ساعة .. يأتى حاملا بعض الأوراق ، أقبل عليه فرحة ، يتبدل وجهه كأن ثعبانًا لدغه ، ويقول بصوت هامس :

ـ أهلا يا أستاذة .. فى المرة السابقة قالوا للعميد إننى تحدثت معك عن الدكتور (على حليم) ، فتم نقلى إلى هنا ، هذه المرة سيكون فصلى من العمل .

ـ لن نستطيع التحدث معًا .. سأنتظرك فى الكازينو المقابل لباب الخروج الرئيسى فى الثانية والنصف .

ـ أفضل الثالثة ..

هذه غرامة جديدة فى سبيل المجد الصحفى ، ما زال أمامى من الوقت الكثير ، اتصلت تليفونيًا بأمى ، أخبرها أننى سأواصل العمل فى الخارج ولن أعود للغداء ، جولت قليلاً فى وسط البلد لأطرد عن كاهلى أعبائى الصحفية ، فلنقل راحة من العمل أشاهد واجهات المحلات وأوجه المارة ، ويقلقنى ضوضاء السيارات ، ومعاكسات من لا هَمّ لهم ولا عمل . وقبل الموعد كنت فى الكازينو ، أصحح بعض الموضوعات ، يتقدم الساعى فى

بدلة أكل عليها الزمن وشرب ونام وقام ، وفعل كل ما يحلو له . وفى يده الجريدة اليومية ، أصافحه مرحبة ، وأنادى (الجرسون) :

ـ اثنين شاى بسرعة .

الساعى وهو يدخن سيجارة :

ـ لا مؤاخذة يا أستاذة ، شاى ثقيل سكر زيادة .

ينصرف (الجرسون) ، ينتابنى الضحك .. أتوقف معتذرة :

ـ آسفة .. سبب الضحك أننى لا أعلم اسمك إلى الآن .

ـ اسمى (حسونة) .

ـ لماذا تم نقلك إلى العمل فى شئون العاملين ؟

ـ العميد يكره الدكتور (على حليم) وهذا صراع قديم ، وعندما أخبره أحد الموظفين بأننى تحدثت إليك عن الدكتور (على حليم) اشتعل غيظًا ، ولسبب تافه تم نقلى إلى العمل بين مكاتب شئون العاملين .

يضع النادل كوب الشاى ، ويردف عم حسونة حديثه :

ـ قبل أن يترك الدكتور (على حليم) الكلية ، كان المرشح الأول لمنصب العميد ، وأعلن آراءه وأفكاره على الجميع واشتعلت القضية بين إمكانية التحكم فى الجوع والعطش والجنس ، عن طريق حقن المخ بهرمونات فى أماكن محددة ..

واستغل الدكتور (محمد أحمد) هذه القضية وألَّب الجميع على الدكتور (على حليم) ، فقدم استقالته وتفرغ لأبحاثه واعتزل الحياة ..

ـ حدثنى عن حياته الشخصية ، وزوجته وأولاده .

ـ الدكتور (حليم) لا يعلم أحد شيئًا عن حياته الشخصية ، لا أنسى يوم قدوم زوجته إلى المستشفى تبحث عنه ، والخوف يطل من عينيها ، بدأ الحديث بينهما هامسًا وبعد قليل كانت (أمّة لا إله إلا اللّه) تلتف حولهما ، وباستدعاء الأمن خرجت الزوجة منهارة ، ولم أرها منذ ذلك الوقت ؟!

ـ متى حدثت هذه الواقعة ؟

يحدق فى الأفق كأنه ينبش فى ذاكرته :

ـ هو ترك الكلية منذ خمسة أشهر ، وقبلها كان فى أمريكا عامين ، أى منذ عامين ونصف تقريبًا .

ـ لكننى عندما ذهبت إلى الفيلاّ لم أر زوجته ؟

ـ زواجه لم يستمر أكثر من خمسة أشهر ، واختفت زوجته قبل سفره إلى أمريكا ، الوحيد الذى يذهب إلى الفيلاّ هو (فوزى) أمين المعمل ، وعند سؤاله قال : إنه لم يرها فى الفيلاّ يومًا واحدًا ، حتى وهما متزوجان ، البعض يقولون إنها فى

مستشفى الأمراض العصبية ، وآخرون يقولون طلقها ، وآخرون يقولون إنها فرت إلى كندا ، لكن الحقيقة لا يعلمها إلا اللّه .

ينظر فى ساعته ثم يقول :

ـ أستأذنك يا أستاذة .. شكرًا على الشاى ، ورجائى ألاّتخبرى أحدًا بحديثى إليك .

أصافحه مودعة ، أطلب كوبًا آخر من الشاى ، مع أن الميزانية لا تسمح بمزيد من التهور ، لكننى كنت فى حاجة إلى الجلوس مع نفسى ، وترتيب ذهنى ، لكن الزمن لا يسمح بطول هذه الفترة ، أتجه إلى الجريدة ، أقدم التحقيق المكلفة به ، أمقت الازدحام والإشارات .. أخيرًا أصل إلى الجريدة الكائنة فى حى المهندسين ، فى عمارة شاهقة فى الدور العاشر . والكارثة إذا تعطل المصعد . ومن أجل ذلك يجاهد رئيس التحرير فى الحصول على شقة فى عمارة أخرى فى الدور الثانى أو الثالث على الأكثر . أضغط زر المصعد ..

الجريدة تتكون من شقة واحدة ، حجرة رئيس مجلس الإدارة ، وهو نفسه رئيس التحرير ، وحجرة للمحررين والريسبشن لاستقبال الزوار . أتجه إلى غرفة الأستاذ (صابر) ..

ما كاد يرى وجهى حتى سألنى :

ـ تحقيق الاستنساخ ..

ـ الموضوع جاهز لم يبق إلا رأى الدكتور (على حليم) ، وهو أستاذ فى الهندسة الوراثيـة ، ورأيـه قد يفجر القضيـة ويخلق تفاعلاً مهمًا ، وخاصة أنه على خلاف مع د. (محمد أحمد) عميد كلية الطب ..

يقاطعنى .

لا يهم رأى الدكتور .. (بيّضى) التحقيق ، وأريده فى أقرب وقت .

ـ ولكن ..

ـ عندى عمل ..

متسائلة :

ـ إذا حصلت على رأى الدكتور (على) ينشر فى عدد آخر ..

ـ إذا كان رأيه كما تقولين يفجر القضية ..

أنتهى من « تبيض » بعض الموضوعات التى طلبها الأستاذ (صابر) ، وأعود إلى البيت منهكة القوى ، آخذ دشًا ساخنًا ، أتمدد على الفراش ، أتصفح كتابًا قبل النوم . أمى تواصل متعتها فى متابعة الفيلم العربى ، يعلو رنين التليفون ، أرفع السماعة ..

ـ آلو .. آلو ..

صوت خافت ، معاكسة من الشباب التافة ، أضع السماعة ، يتكرر الرنين ، أرفع السماعة واستعد لخوض معركة شرسة ، يأتينى صوت خافت .

ـ أ أ أنا .. فـ .. و .. ز .. ى .. خا .. دم .. الد .. كتور .. على ..

ينقطع الخط . يصيبنى القلق بأحد سهامه ماذا أصاب (فوزى) ؟ وماذا يريد ؟ أنتظر زمنًا طويلاً ، وتقريبًا غفوت وأنا انتظر . لم أشعر إلا وأمى تسحب الكتاب من يدى ، أراها كطيف يتحرك أمامى ، تربّت علىّ بيدها .

★ ★ ★

٤ـ الزيارة الثانية واللغز ..

الصحافة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، خاصة فى جريدة مثل جريدتنا (الصبر) ، اسم على مسمى ، ورئيس التحرير (صابر أيوب) ، وجريدة فى الدور العاشر ، تخرسك كل هذه العوامل عن طلب مستحقاتك ، حتى القراء يندهشون من اسم الجريدة . والحياة كلها صبر فى صبر . فلم أجد بدًا من العمل فى الفترة الصباحية فى مكتب كمبيوتر مع صديق والدى أستاذ (أحمد) ، وهو رجل تجاوز الستين أصلع الرأس صاحب « كرش » فخم مملوء دائمًا بما لذ وطاب ، حين يضحك الأستاذ (أحمد) يربت على كرشه .. « يا ابنتى هذا يدل على العز وأكل الوزّ » .. وأحيانًا : «وأما بنعمة ربك فحدث » .. ومرحه هذا لا يخفى عصبيته لدرجة تجعلك تبغضه ، وهذا نادرًا ما يحدث ، وهو دائم النظر لى بأننى صحفية ذات غدٍ مشرق ، وهو من قراء الجريدة ، وحين يأتى أحد للكتابة عنده يقول له وهو يشير إلىّ « هذه الأستاذة صحفية لها مستقبل عظيم فى عالم الصحافة » . والعمل مجزٍ جدًا ومريح أيضًا ، بالإضافة إلى حريتى فى الذهاب والإياب ، وأهم شىء لا يصرخ مثل أمى عند استخدام التليفون ، ويذكرنى بالفاتورة وحساب الملكين .

ـ يا أستاذ (أحمد) .. الساعة ٢,٠٠

يبتسم قائلاً ..

ـ فى رعاية الله يا ابنتى ..

عبارة تدل على أن أحوال الأستاذ (أحمد) على خير ما يرام .. قررت الذهاب إلى البيت وتناول الغداء ، ثم الذهاب إلى الجريدة ، وما إن سمعت أمى صوت المفتاح حتى صاحت :

ـ الأستاذ (صابر) اتصل ينتظرك فى الجريدة حتى السابعة ، ويريدك لأمر ضرورى ..

أتناول الغداء بسرعة مرددة لنفسى :

خير البر عاجله ، وإن كان الأمر شرًا فوقوع البلاء أفضل من انتظاره ..

كل شىء ، عند الأستاذ (صابر) مهم جدًا ، حتى لو كان الأمر شراء باكو شاى من السوبر ماركت أسفل العمارة .

أدلف إلى حجرة رئيس التحرير ، يرفع عينيه عن الأوراق .

ـ الدكتور (على) اتصل ويريد منك الاتصال به لتحديد موعد لإجراء الحوار .

لحظة اندهاش « ياااه لقد أوشكت على اليأس ، أسبوع من اللقاء الأخير ولم يتصل ، وكدت أصرف ذهنى عن هذا الشخص ، لولا مكالمة خادمه فوزى أمس ».

ينظر إلىّ الأستاذ . ويستطرد :

ـ يا أستاذة إلى أين وصلت ؟ اذهبى اتصلى به ..

أتحرك من مكانى إلى الريسبشن ، يتقدم (حسن) ساعى الجريدة مصافحًا ، أسأله :

ـ أين كنت ؟

ـ فى البلد ..

ـ كوب شاى يا أبو على ..

أضغط أزرار التليفون ، صوت الدكتور غارقًا فى النوم ، أذكره بنفسى ، يجيب :

ـ أنتظرك اليوم فى الثامنة ونصف ..

مازال أمامى متسع من الوقت ، أولاً أتصل بأمى لأخبرها بتأخيرى فى الجريدة . استغرقت زمنًا فى إعداد بعض المقالات ، أستأذن من رئيس التحرير . حتى أصل فى الموعد .

بالفعل كنت فى الثامنة ونصف أرن جرس الباب يأتينى الخادم حاملاً فانوسه هامسًا :

ـ لحظة واحدة .

على ضوء الفانوس ، رأيت وجهه شاحبًا والكآبة تكسوه ، فانقبض قلبى . يفتح الباب يمد يده مصافحًا . أحس بورقة بين يدى ، ويده والفانوس على الأرض ..

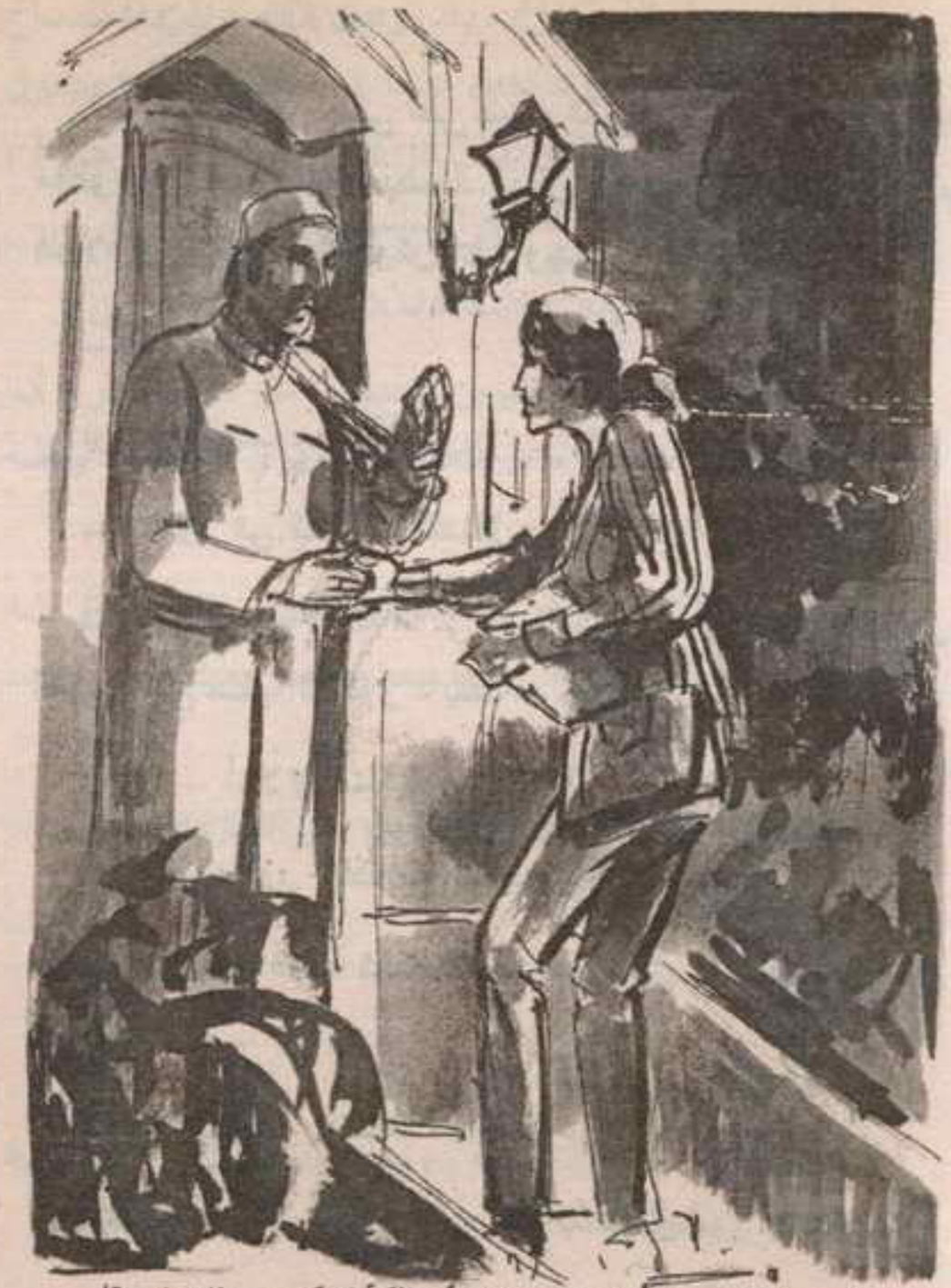

على ضوء الفانوس ، رأيت وجهه شاحبًا والكآبة تكسوه ، فانقبض قلبى . يفتح الباب يمد يده مصافحًا . أحس بورقة بين يدى ، ويده والفانوس على الأرض ..

ـ أهلاً يا أستاذة ..

أدس الورقة فى جيبى على ضوء الفانوس ، أرى يده الأخرى مقطوعة الكف وملفوفة بضماد أبيض . أحمد اللّه على الظلام فلولاه لرأى خوفى المنقوش على وجهى ، أسأله :

ـ ماذا أصاب يدك ؟

يراوغ بكلمات مخنوقة .

ـ الدكتور فى انتظارك بالداخل .

فى الداخل . وما أدراك ما فى الداخل ؟ نصعد فى السلم الصغير المؤدى إلى مكتب الدكتور ، يقف مرحبًا :

ـ أهلاً .. أهلاً يا أستاذة ..

ـ أهلاً يا دكتور . لقد سررت برؤية سيادتك بخير .

مرتديًا بدلة أنيقة كأنه ذاهب إلى حفل ، رائحة البرفان تعبىء المكان ..

ـ بخير .. بخير يا أستاذة كل شىء على ما يرام ..

التفت خلفى فلا أرى (فوزى) . يشعل الدكتور سيجارته ..

ـ ما هو التحقيق الذى تقومين به ؟

ـ تحقيق حول الاستنساخ . بعد توصل العلماء إلى استنساخ الخروف (دوللى) ، ما رد الفعل علينا إزاء هذا التقدم ؟ ويقول آخرون : إن الاستنساخ هو تدخل فى قدرة اللّه (عز وجل) ، وأود أن أعرف رأيك فى قضية الاستنساخ .

يضحك الدكتور ، يقعد واضعًا كالمعتاد ساقًا على أخرى .

ـ يا أستاذة . لابد أن الكثيرين يتحدثون عن هذا الأمر ، أنا لن أتحدث فقط « محتدًا » بل أفعل أيامًا ويرى العالم ما يفعله الدكتور (على حليم) ..

قال عبارته الأخيرة وهو يقف متخيلاً نفسه أعظم خلق اللّه آآآه مصاب بداء العظمة ، ربنا يستر وتمر الليلة بسلام .. أقاطعه :

ـ هلاَ تفضلت سيادتك بإلقاء الضوء على تجاربك ؟

باندهاش .

ـ تجاربى !!

أومىء برأسى ، فيردف .

ـ الفكرة أولاً ، ثم التجربة ، وليس عندى الآن إلا تجربة واحدة ، فكرة واحدة :

ـ وما هى ؟

أصبته فى مقتل هكذا أخبرتنى ملامح وجهه الشمعى ، وبعناد اهتزت له خلجات وجهه .

ـ سترين قريبًا ..

بصوت هادئ .

ـ أنا لا أريد أن أرى . لكن أريد خبرًا . إن خبرًا مثل هذا يصنع مجدى الصحفى ، وخاصة أنك لا تذهب إلى الكلية ، ما السر فى ذلك ؟

يبتسم ، يعاود الجلوس واضعًا ساقًا على أخرى :

ـ يبدو لى أنك سريعة الحركة ونشيطة ، وتجمعين كثيرًا من المعلومات عن مصادرك .. أدارى خجلى بابتسامة ..

ـ ليس بالقدر الذى تتوقعه ، كل ما أفعله هو أننى أحاول معرفة مع من أتحدث ..

يصرخ :

ـ يكفى اسمى : الدكتور (على حليم) ..

« ورص » اسم كذا جامعة فى أوربا وأمريكا ، كأنه يردد نشيدًا من أناشيد المحفوظات المدرسية ، أحس أننى أتعرض لصدمات كهربائية ، فلا أملك إلا الاعتذار قائلة :

ـ أنا لا أقصد التقليل من شأن سيادتك . لكن هذا جهل منى و ..

يقاطعنى مرة أخرى غاضبًا ..

ـ يا أستاذة لن أتحدث اليوم ..

بغيظ مكتوم ..

ـ لك ما تشاء يا دكتور . فلست مجبرًا على الكلام .

أجمع أدواتى بعصبية من هذه الإهانة بالغة القسوة . قبل أن تقبض أصابعى على الباب ، يرسل جملة سريعة :

ـ موعدنا الأسبوع القادم . ويجب أن يكون الحوار مع الدكتور (على) وحده وليس بجانب آخرين .. لا تخرجى الآن ..

التفت لأراه عند المكتب يضغط جرسًا . يأتى (فوزى) كأنه يأتى من عالم بعيد ..

ـ الحديقة خالية ..

يطأطئ رأسه . يردف الدكتور :

ـ اصحب الأستاذة إلى الخارج ..

يرافقنى (فوزى) حتى الباب الخارجى بهمس أسأله .

ـ لم تقل لى ماذا أصاب يدك ؟

لا يجيب ، ينتحب بصوت مكتوم ولا يجيب ، يغلق الباب ويحمل الفانوس عائدًا ..

أواصل السير لأقرب محطة أتوبيس وألعن هذا الطبيب المعتوه . لن آتى إليه ، وليذهب إلى جهنم هو وأبحاثه وخادمه ، والحمد لله على أن التحقيق سينشر غدًا فى الجريدة . أصل إلى البيت يأكلنى التعب والضيق .

أفرغ محتويات حقيبتى ، ثم جيوب البنطلون ، فإذا بى أجد ورقة مكورة تذكرتها .

ورقة (فوزى) ، أبسط الورقة ، وأنا أستبدل ثيابى كلمات متناثرة بخط ركيك ..

« الباب السرى .. كلاب المعمل .. الأحد القادم يخرج .. المذكرات فى درج المعمل .. » .. من الواضح أنه كتب الكلمات على عجل . ماذا يقصد ؟

لنبدأ فى تفسير الموضوع الباب السرى .. لا أعلم شيئًا غير أنه فى الفيلاّ كلها ، باب سرى لكن أين ؟ الجملة الثانية كلاب المعمل ..

إذن هناك فى الفيلاّ كلاب ، وهناك معمل تحبس فيه الكلاب نعم .. نعم .. عند خروجى سأله الدكتور : « الحديقة خالية » ؟

أضرب صدرى بلهفة .. يا نهار .. إذن لو اندفعت وخرجت لكانت الكلاب تجرى خلفى . إنها الكلاب التى كان يقيدها الدكتور فى الحديقة بعد خروجى من الفيلاّ فى أول الزيارة . ما سر هذه الكلاب ؟ لم يبق إلا كلام عم (حسونة) . إنها كلاب تجارب . لقد قرأت فى أحد المقالات أن الباحثين أحيانًا يقطعون الأحبال الصوتية عند إجراء التجارب عليها ، حتى لا تسبب إزعاجًا . إذن الموضوع فيه سرّ وما هو هذا السرّ ؟

لا يهم الآن سأصل إليه . الجملة التالية الأحد القادم يخرج ..

بالطبع الدكتور ربما يخرج الأحد القادم فقط ، أى بعد غد ، وربما يخرج كل أحد .. إذن يمكننى المغامرة ودخول الفيلاّ الأحد القادم . تبقى الجملة الأخيرة ، المذكرات فى درج المعمل . من الطبيعى أن توضع المذكرات فى غرفة المكتب ، لماذا هى فى المعمل ؟ ربما تكون أبحاث الدكتور ، التى حدثنى عنها .. وأين المعمل ؟ دائمًا فى مكان قريب من الأرض . ما الحكاية بالضبط ؟

تدفع أمى الباب ؟ تضرب كتفى قائلة :

- هل جننت يا بنت ، الدنيا برد وتقفين هكذا ؟

أفزع من ضربتها وأرد ..

ـ كنت أفرغ الحقيبة والملابس ..

ـ يا رب قدرنى . كل شىء ينتظر للصباح ، ارتدى ثيابك ، العشاء جاهز ..

أضع الورقة فى درج مكتبى ، وأخرج لتناول العشاء .

★ ★ ★

٥ ـ حبس انفرادى ..

ويأتى يوم الأحد كأننى أجره من باطن الأيام بمشقة وعذاب ، وأنا أفكر متى يخرج الدكتور بالضبط فى الصباح ، بعد الظهر ، فى العصر ، المغرب ، العشاء ، منتصف الليل . لو أضاف كلمة واحدة لأنقذنى من الحيرة . أضغط أزرار التليفون ..

يعلو رنين الهاتف ، أنتظر صوت ماكينة الرد (الأنسرماشين) :

« الدكتور (على حليم) غير موجود بالمنزل الآن .

اترك الرسالة والاسم والعنوان ..

مع حرية الدكتور فى الاتصال أو عدمه ..

بعد سماع الصفارة تحدث ..

شكرًا » .

أضع السماعة ، الدكتور ليس بالفيلاّ ، وربما يقرأ ، لاداعى للتردد ، مرحبًا بالدخول ، أستبدل ثيابى بسرعة ..

أهرول إلى الشارع ، أمر بمكتب الكمبيوتر ، الحاج (أحمد) ينظف المكتب بنفسه ، يرفع يده محييًا ، طوال الأيام الماضية كنت أقتل قلقى بالانهماك فى العمل بين مكتب الكمبيوتر والجريدة .

- صباح الخير يا أستاذة ..

- صباح الخير يا حاج (أحمد) ..

أواصل سيرى ، فاليوم إجازتى من المكتب ، أحيانًا أذهب فى الإجازة ، وذلك فى حالة وجود عمل كثير لدى ، أستقل الميكروباص إلى الجيزة ، نصف حياتى أقضيها فى المواصلات ، وخاصة الميكروباص ، أخيرًا أصل إلى الشارع الكائنة به الفيلاّ ، أتقدم والخوف يدب فى أوصالى ، أدفع الباب برفق ، أجده مفتوحًا ، تفاجئنى فكرة هجوم الكلاب علىّ من كل صوب وأنا فى وسط الحديقة ، يا خبر أسود ، أبسط أمر علاج واحد وعشرون حقنة فى مستشفى الكلب . لا .. لا يمكن .. ضعى ثقتك بنفسك ..

أنقذى (فوزى) . و (فوزى) نفسه يعلم بقدومك اليوم ، بالطبع الكلاب مغلق عليها ..

هيا .. هيا .. لا داعى لهذا الخوف ، أصعد الدرج ، أتجه صوب حجرة المكتب ، الباب مفتوح .. أدخل ، الأوراق متناثرة على وجه المكتب . لا داعى للمس أى شىء ، أدفع الباب المؤدى إلى (ريسبشن) الفيلاّ ، أجول ببصرى فى المكان لاشىء . أتقدم إلى قلب (الريسبشن) ..

آخر فخامة ، يا اااه .. كل هذه التحف !! النجف غاية فى الروعة . أعطِنا يا رب ، بسم اللّه ، رجل عنده ذوق .

هذا السلم يؤدى للطابق العلوى ، أجتاز السلم .. إلى يساره توجد ردهة ، أدلف إليها بحذر ، أدفع باب الحجرة المقابلة وهى غاصة بالظلام خاوية إلا من فراش ، أرتعد عند إضاءة المصباح المدلى من السقف . صوت مرحب ..

- أهلا يا أستاذة .. أنا (فوزى) .. تقدمى ..

أخطو إلى قلب الحجرة ..

- أغلقى الباب .. آسف .. لا يوجد مقعد تجلسين عليه ..

أغلق الباب وأتجه صوبه ، شاحب الوجه ، غائر العينين .. برفق ..

- لا تجهد نفسك . قرأت الورقة .. فهمت بعض الأشياء ، وأخرى لم أفهمها ..

يبتلع ريقه بصعوبة :

- هذا هو المعمل ، أصبح الآن خاويًا من كل شىء . متى وكيف نقل الدكتور الكلاب ، ومعمله ؟ لا أعلم .. لمعاونتك تركت لك الأبواب مفتوحة ..

- أين كنت ؟

يحدق فى الظلام ..

- أول زيارة لك كنت أطعم الكلاب ، فى أثناء حوارك مع الدكتور ، وكانت تتضور جوعًا ، وسقطت قطعة خارج القفص

وعندما دفعتها بيدى بدون العصا للداخل ، انقض أحدها على يدى وعضها ، فانطلقت صرختى وأنا أجذبها من بين فكيه . أسرع إلينا الدكتور ، ربّت على كتفى ، وغاب لحظة وعاد يضمد جرحى . ثم حقن بعض قطع اللحم بمادة تؤثر على أعصاب الكلاب ، وانهال عليها ضربًا ، وجرها إلى الخارج ، ثم حقننى بمادة مخدرة ، استيقظت بعدها لأجدنى فى مكانى هنا مقطوع الكف ..

قلت متسائلة :

ـ وأين كنت تنام ؟

ـ فى المطبخ . وعندما سألته ، أجاب : الكلاب ليست هنا ، المهم أنت . انقلبت الدنيا أمامى لا أعلم ليلاً من نهار .

يدير وجهه للحائط :

ـ انظرى ..

مشيرًا لرأسه من الخلف . فأرى نصف رأسه محلوقًا بالموسى ..

ـ ما هذا ؟

يبكى :

ـ لا أعلم ، الدكتور يحقن ذراعى بمسكنات ومواد أخرى لا أعلمها ..

وبدأت أشعر بجوع شديد ، آكل كل شىء حتى الخبز العفن ، يغلق الدكتور الباب علىّ أحيانًا بالطعام ، ويراقبنى من ثقب الباب وأنا ألتهم العظام . أصبحت لا أنتظر نضج الطعام ، بل أخطفه من على النار ..

ـ ماذا يفعل الدكتور (على) بالكلاب ؟

ـ إنها كلاب اشتراها لإجراء تجاربه عليها .. (أمارات الدهشة ترتسم على وجهه) .. إنه يشترى كميات كبيرة من اللحوم والأسماك ..

(بصوت أقرب إلى الهمس) فى الأسبوع الماضى اشترى خمسة خراف كاملة وذبحها ، فى الصباح لم أجد لها أثرًا فى الفيلا .

لابد أن الكلاب هنا قريبة (كأن ثعبانًا لدغنى ، ألتفت خلفى من بين دموعه ، أجاب) لا إنها قريبة ولكنها ليست طليقة . فالدكتور ترك باب حجرتى مفتوحًا ، ليؤكد لى أنها غير موجودة بالمنزل . ومع ذلك أنا واثق أنها هنا .

تعلو دقات الساعة ، يفزع (فوزى) :

ـ ابنتى اسمعى ، انطلقى إلى كوخ الحديقة ، دقائق ويصل الدكتور ، توخى الحذر أن يراك ، سأراك الأحد القادم ، وداعًا .. هيا .. أسرعى .. لا تقفى .. أنا اخترت الطريق وعلىّ السير فيه إلى النهاية . وداعًا ..

لأول مرة أرى الفزع مجسدًا فى خلجات إنسان كـ (فوزى) ، أنطلق إلى كشك الحديقة الخشبى ، أدفع الباب ، ينن ، العنكبوت يعشش فى أركانه ، التراب يغطى كل شىء ، خلفه النافذة مكسورة ، أبحث عن مكان أختبىء فيه لأرى ما يحدث بالخارج ، لا يرانى أحد .. يمر الوقت ببطء كأنه سائل لزج يسيل ببطء ، ولا أملك إلا الانتظار . ولماذا أنتظر ؟ أخرج من الفيلاّ ، أستدير لمواجهة الباب ، وإذا بى أسمع سيارة تقف فى الخارج ، يتداخل صوت الدكتور مع صوت قليل من الرجال وعواء بقر .. أرجع إلى مكانى ..

أتابع ما يحدث ، بقرة . اثنتان ، ثلاث ، يجرهن جزار وأتباعه . صوت أجش :

ـ يا سعادة البك أين نربط الماشية ؟

ـ سر ولا تتحدث ..

ـ الزرع يا بك ..

ـ قلت لك سر ولا تتحدث ..

أتابع من النافذة « القافلة » يتقدمها الدكتور . أستدير استعدادًا للخروج ..

سيارة نقل تقف أمام الفيلاّ ، السائق يستمع لأغنية شعبية ومنسجم على الآخر . آه ، أصبحت فى خانة « البك » لا مفر من

الانتظار حتى خروج الجزار ، لا داعى للغداء اليوم . متى يخرج الجزار ؟ « يا صلاة النبى » ..

لو .. لو أراد الدكتور ذبح البقرات الثلاث . طبعًا سيذبحها الدكتور ، أم سيتركها تعلن عن وجودها طوال الليل ؟

ساعة سجن على الأقل ..

الكشك الخشبى قديم ليس به إلا أثاث متراكم . بعض المناضد المتهالكة ، المقاعد المحطمة وشمسية بحر ، أدوات صيد ، سرير حديد تعلوه حشية أظنها مصنوعة من التراب لا القطن ..

قدماى تؤلماني بشدة ، الساعة مرت ، وأعقبها ساعة أخرى ، ولا أثر للجزار ولا أتباعه . يا جماعة حرام ، أنا مسجونة هنا .. لم أذق طعم الأكل منذ صباح اليوم .. اتقوا الله ..

أسأل الله أن يأخذكم ، أنتم والدكتور . صبى الجزار يتقدم حاملاً على كتفه جلود البقرات الثلاث ، كأن باب السماء مفتوحًا واستجيب لدعائى ، أقبض أنفاسى حتى يمر إلى الخارج ، صوته يتحدث مع السائق ..

ـ تأخرنا عليك يا أسطى ..

ـ كله بثمنه . أين المعلم ؟

المعلم يدفع بأدوات الذبح والسلخ للصبى الثانى ، يتناقش مع الدكتور ، شد وجذب ، أكيد حديث حول الأجر .

يسير بجوار الكشك ، يخـرج الدكتور ثوانـى ويعود ، يغلق الباب بالمفتاح ويضعه فى جيبه .. فى جيبه ، يـا نهـارًا بـألوان الطيف . سجن فى الفيلا إلى متى ؟ كلاب تخرج ، جائز جدًا .

الدكتور يرانى ، جائز أيضًا . ربنا يسامحك يا سيد (فوزى) . أتابع الدكتور من النافذة وهو يدلف إلى حجرة المكتـب ، أنفجر فى بكاء مكتوم .

تسلطت على رأسى فكرة أن الدكتور تعمد سجنى هنـا معـه فى الفيلاّ ، ويلعب بأعصابى ثم يفاجئنى ، ويقبض علـىّ وتكـون نهايتى .. ولا حس ولا خبر ..

أمى لا تعرف مكانى ، حتى الأستاذ (صـابر) . لا أدرى كـم من الوقت مر وأنا فى حالة الانهيار هذه . أقدام تسير ببطء ، أتحفز لمواجهة القـادم ، يـا روح مـا بعدك روح ، أحمل عصـا الشمسية ، ثقيلـة ولكن تفى بـالغرض ، يندفـع البـاب برفـق ، أحبس أنفاسى . صوت هامس ..

ـ يا أستاذة أنا (فوزى) .. هل أنت هنا ؟

ألقى العصا على الأرض :

ـ كما ترى ؟

ـ آسف يا أستاذة ..

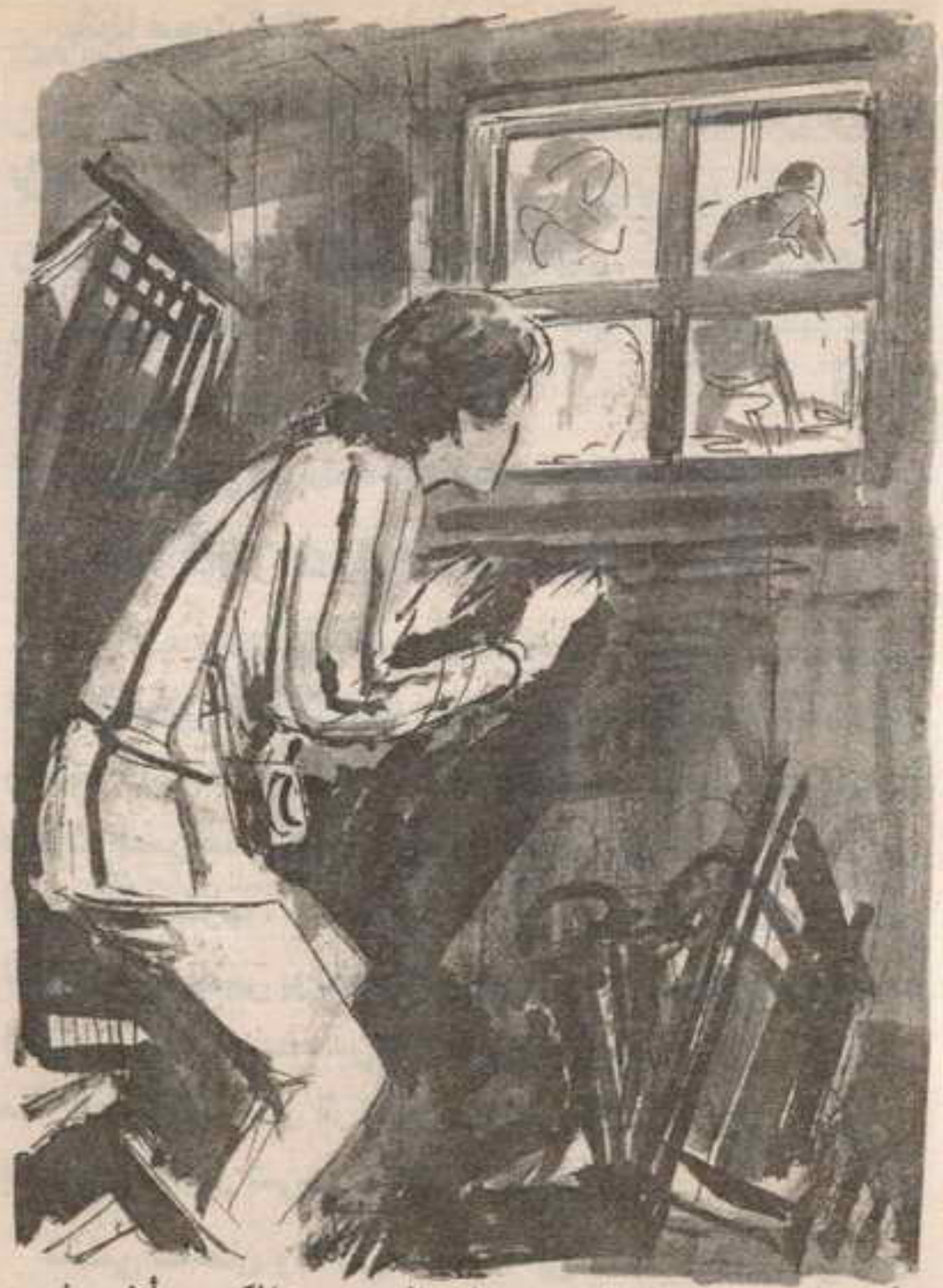

أتابع الدكتور من النافذة وهو يدلف إلى حجرة المكتب ، أنفجر فى بكاء مكتوم !

يأتينا صوت الدكتور صارخًا وهو يبحث عن (فوزى) :

ـ أين أنت يا (فوزى) ؟ ألم أقل لك ألا تغادر فراشك يا حيوان !!

يلقى (فوزى) المفتاح على الأرض ..

ـ نعم يا دكتور ..

ـ ماذا تفعل عندك ؟

ـ مللت الرقدة ..

ـ اذهب إلى فراشك ولا تتحرك إلا بإذنى ..

يدنو منه (فوزى) ، من الواضح أنه يوبخه بشدة ، يصُبُّ الليل فى رأسى أفكارًا سوداء ، نصف ساعة منذ قدوم الليل والستارة لم تتحرك ، تزداد الأفكار ظلمة فى رأسى مع ارتفاع صوت الصراصير ، ربما يتحرك الثعبان ويلتف حول قدمى أو يلدغنى عقرب ، والمصيبة المصيبة لو أقامت الكلاب حفل استقبال لى ، ينتهى بواحد وعشرين حقنة أو بفراش بجوار عم (فوزى) ، أخرج ببطء من الكشك ، يتحرك الدكتور فى الحديقة . ماذا يفعل ؟ إنه يمحو أثر البقر من على الرمال ، حتى الزرع ، إنه يمحو أثر كل شىء .. أعود إلى مكانى ..

تمضى ساعتان ولا شىء جديد ، أين ذهب الدكتور ؟ يا رب أخرجنى مما أنا فيه ..

أخيرًا أضيئت الحجرة ، تشبثت عيناى بالضوء ، تحركت الستارة ، إنه الدكتور يفتح الشرفة ، يطل على الحديقة .. أين أنت يا عم فوزى ؟ يدخل إلى الحجرة ، يطفئ النور ، لا مفر من الهروب ، تسلقت وألقيت بنفسى إلى الخارج ، أنظر من فتحتى الباب المدلى منهما السلسلة ، لم يرنى أحد .. أجرى فى الشارع ، لم أشعر بنفسى إلا وأنا أمام أمى ، تصرخ ..

ـ أين كنت ؟ ماذا كنت تصنعين ؟ ما كل هذا التراب ؟

صحفية أنت أم طفلة تلعب بالتراب ؟!

كأننى لا أسمع شيئًا ، أنظر إلى الساعة ، العاشرة إلا خمس دقائق ، أتجه إلى الحمام ، أصرخ من الداخل وأنا أخلع ملابسى :

ـ أمى جهزى لى الثياب ..

أترك المياه الساخنة تنساب بغزارة فوق جسدى المنهك .

★ ★ ★

٦ ـ خيط من الحقيقة ..

أرتشف رشفة من كوب الشاى ، أقضم قطعة من البسكويت المحشو بالعجوة ، ورأسى يطحن الأفكار والأسئلة . بقرات ثلاث فى بيت رجل واحد .. ماذا يفعل بها ؟ حفل عشاء ؟ لا يمكن ، ولماذا ينتظر عم (فوزى) المصير المجهول ولا يحاول الهرب ؟ وما سر هذه الكلاب ؟ وأين هى ؟ فى أى مكان فى الفيلاَ ؟

كما نمت وأنا أفكر قمت وأنا أفكر ، ورأسى يدور داخل خلية من الأسئلة ، لم أفق من شرودى إلا وأنا أتجه صوب قصر العينى . قسم شئون العاملين ، أبحث عن عم (حسونة) ، أراه خارجًا من إحدى الحجرات ، أمر من جواره كأننى أراه صدفة :

ـ أهلاً يا عم (حسونة) ..

ـ أهلا يا ابنتى .. ماذا تفعلين هنا ؟

ـ أجرى تحقيقًا صحفيًا عن المستقبل فى عيون طلاب الطب .. كيف حالك ؟

ـ بخير ..

هامسة :

ـ سأنتظرك فى نفس المكان بعد انتهائك من العمل .

وخوفًا من جواسيس د. (محمد أحمد) عميد الكلية ، قمت بسؤال الطلاب عن هذا التحقيق ، وهو تحقيق عفوى طرأ على عقلى وأنا أتحدث مع عم (حسونة) ، فما المانع من القيام به ؟ وكانت إجابات الطلاب فى غاية التباين ، ألتقط بعض الصور مع مجموعة منهم ، وانهالت الأسئلة عن الجريدة . قبل أن أنطق بحرف واحد رأيت ضابطًا برتبة رائد ينقر كتفى مستفسرًا .

ـ ماذا تفعلين يا أستاذة .. تفضلى معنا ؟

بجواره جنديان ، أثار تصرفه ضيق بعض الطلاب ، التفتّ إليهم ..

ـ دقائق وأعود ، لا تتحركوا ..

أجابوا :

ـ نحن فى انتظارك .

نتجه إلى مكتب العميد ، وما إن رآنى ، حتى وقف مرحبًا ..

ـ أهلاً أهلاً يا أستاذة .

أصافحه متسائلة عن أحواله ، أخرج من حقيبتى نسخة من الجريدة .. كنت محتفظة بها من أجل لقاء الدكتور كنوع من تنمية العلاقات بمصادرى أقدمها إليه :

ـ تفضل يا أفندم نسخة لسيادتكم بها التحقيـق الـذى أجريتـه معك حول الاستنساخ ..

يفتح الجريدة ، أردف :

ـ فى الصفحة الثالثة والرابعة يا أفندم ..

ترتسم آيات السرور لرؤية صورته مع العديد من « الدكاترة » أعضاء هيئة التدريس بالجامعة وآخرين ..

ـ شكرًا يا ابنتى . لكن ماذا تفعلين داخل المستشفى ؟

مما أثار ضيق الرائد (محسن) ؟

دون أن ألتفت إلى الرائد :

ـ لا شىء قادمة لرؤية سيادتك ، فقلت أقـوم بتحقيق بسيط عن « المستقبل فى عيون طلاب الطب » .

بروح ودودة لا تخلو من اللوم والعتاب :

ـ كـان من الواجب أن تستأذنى منى أو من السيد ضابط الأمن ..

أبتسم :

ـ فى هذا معك حق . لكننى لمست فى روح سيادتك التعاون وحب العمل ، استنتجت أنك لن ترفض فاغفر لى تصرفى على ضوء هذا الاستنتاج ..

يبتسم الرائد (محسن) :

ـ إذن لا شىء يا دكتور (محمد) .

ـ لا شىء يا (محسن) بك شكرًا لتعاونك .

أتناول كوب شاى مع الدكتور العميد ، وخلال الدردشة سألنى وهو يتصفح الجريدة ، أو بالتحديد التحقيق .

ـ جميل جدًا ، لم يحذف حرف مما قلت .

ـ لرأيك أهميته العلمية ..

يضع الجريدة جانبًا :

ـ لكن أتعجب كيف تقومين بهذا التحقيق دون أخـذ رأى الدكتور (على حليم) ، أحد أساتذة الهندسة الوراثية فى مصر والعالم ..

ـ حاولت أن أتحدث معه لكنه رفض بشدة ، فلم أجد بدًا من إغفال رأيه ، أظن مَنْ فى التحقيق أدلوا بكثير عن الموضوع ..

ـ ومن أين أتيت بالعنوان ؟

ـ مصادرى يا دكتور ..

قلتها وأنا أضع كوب الشاى فى مكانه وأردفت :

ـ شكرًا يا دكتور على الشاى ..

- عفوًا يا ابنتى « بقلق » عم (حسونة) الساعى ؟!

آه بسببى قد يفصل عم (حسونة) أو أضعف الإيمان يأخذ لفت نظر :

- لا يا دكتور ..

- إذن من أين ؟ موظفة فى الأرشيف ؟

أضحك :

- يا دكتور أنا صحفية ، وإذا فقدت مصادرى ضاعت أهميتى الصحفية . وإذا كنت قلقًا إلى هذه الدرجة سأخبرك يا دكتور ..

إنه رئيس التحرير ، وهو فى منزلة والدى لايتأخر عنى أبدًا فى المعلومات ..

يذوب القلق من وجهه ، فأرسل كرة نارية إليه :

- ما سر قلقك من ناحية الدكتور (على حليم) ؟

ينفخ متضجرًا :

- الأوراق متداخلة وبصورة مختصرة ، هذا الطبيب مختل عقليًا من وجهة نظرى على الأقل . ولا أنكر قيمته العلمية . فهو يريد للكون أن يسير كيفما يشاء ، يظن أن البشر فئران تجارب ومجردون من المشاعر ، وأن العلماء هم أحق بالسيطرة

على العالم .. لم أر زوجًا يدفع زوجته إلى الجنون إلا هو .. هل تصدقين ؟ إننا جميعًا لا نعرف أين اختفت ؟ سألت عنها فى جميع المستشفيات الخاصة للأمراض العصبية العقلية ، حتى فى مستشفى العباسية لا أثر لها ، والزوجة ليس لها أهل أو أقارب نعلم طريقهم .

وهى لم تغادر مصر .

أشد ما يعجبنى فى هذا الرجل لباقته فى التحدث ..

اعذرنى يا دكتور إذا قلت إن البعض يقولون إنك وراء استقالة الدكتور (على حليم) من الكلية ، حتى تنال كرسى العمادة ..

ينظر إلىَ بتعجب ثم ينفجر ضاحكًا :

- لا أنكر أننى كنت أسعى إلى هذا المقعد ، لكن بأسلوب شريف ، لم أحتلّ مكان أحد ، والمشكلة تكمن فى الألسنة التى تروّج الأكاذيب مثل عم (حسونة) الساعى ، الذى يحب الدكتور (حليم) لدرجة العبادة . فـ (حليم) من أسرة ثرية سخى ، كريم من الناحية العلمية والمادية ، لكنه شاذ فكريًا ، لهذا تجدين أن أعضاء هيئة التدريس على خلاف دائم معه ، بينما البسطاء من الممرضين والحكيمات والسعاة يرونه سخيًا كريمًا . وهذه هى نقطة الخلاف .

- تقصد أن للحقيقة أكثر من وجه ..

- بالضبط يا أستاذة ..

- لكننى أسألك ماذا تقصد بـ « شاذًا فكريًا » ؟

- العلم سلاح ذو حدين ، والدكتور (حليم) وصل لدرجة من العلم يحسده عليها الكثير من الأطباء فى مصر وفى العالم .. وتفكيره المتجه إلى الشر يدمر العالم .. ولأضرب لك مثلاً بسيطًا : فى يوم قدم الدكتور (على) بحثًا إلى عدد من الزملاء يدور حول الإذن له بإجراء تجاربه فى المعمل على مجموعة من الكلاب ، يحقنها بهرمونات مصنعة فى أماكن خاصة بالمخ لتثير غريزة الجوع لديها وتصبح شرهة لدرجة الفتك بالإنسان ..

أقاطعه متسائلة :

- وهل بالفعل توجد أماكن فى المخ تؤثر على غريزة الجوع ؟

- هذه مسألة طبية معروفة جدًا ، ومعنى توصل الدكتور إلى هرمون مخلق يحقن به المخ ، أنه على استعداد لإجراء هذه التجربة المرفوضة طبيًا ، والخوف إذا نجح الدكتور (على) ، فربما يجريها على أى إنسان حقل تجارب . وقد تعمقت الفكرة برأسه لدرجة أنه أعلن أن هذه الكلاب تستخدم فى القضاء على الفاسدين فى المجتمع أو غير المرغوب فيهم .

وأثار هذا الموضوع الجميع . وظلت المناقشات لإقناع الدكتور (حليم) بالعدول عن رأيه ورفضت الكلية دخوله المعمل ، وأخطرنا مجمع البحوث بذلك ، مما أثار الدكتور (على حليم) فتقدم باستقالته إلى مجلس الجامعة ، ونشبت بيننا حرب ضروس انتهت بقبول الاستقالة ، وأعلن أنه يعتزل العالم إلى أن يعترف العالم بحاجته إليه ، عندئذ سيعود بشروطه وكيفما يشاء .

- أليس هذا حَجْرًا على العلم ؟

- العلم إذا لم يستخدم لخير البشرية فلا داعى له ، إن الصراع النووى فى العالم من أسوأ ما أنتجه العلم . القنبلة الذرية وغيرها ، أنا أومن بأن العلم يجب أن يخدم الخير بدلاً من آلاف الملايين التى تنفق على السلاح النووى ، كان يمكن إنفاقها على فقراء العالم ..

لنعد إلى (حليم) صاحب الشخصية المصابة بمرض البارانويا « جنون العظمة » و ..

أخرج من مكتب العميد ورأسى يزن ثلاثة أطنان من الكلام ، لدرجة أننى نسيت لماذا جئت الكلية وماذا أريد ؟ فى ثوان أعدت ترتيب أفكارى ، عدت إلى الطلاب ، الذين وجدتهم فى انتظارى ، وارتسمت البهجة على وجوههم لرؤيتى مرة أخرى ، وواصلت

اتجهت إلى محطتى الأخيرة عم (حسونة) ، وجدته منتظرًا يتصفح الجريدة ..

المناقشة معهم ، قامت إحدى الفتيات بشراء مشروب مثلج ، وبعد الانتهاء من الحوار جلست مع هذه الفتاة وزميلة لها نثرثر عن فتى الأحلام ، أخذت إحداهن تروى عن خطيبها ، وكيف التقيا ، وما إلى ذلك من الأمور الخاصة . مع كل هذا لم ينس أحدهم أن يسألنى عن عنوان الجريدة مرة أخرى ، وأخبرته باسمها فتساءل مازحًا :

ـ لماذا لا تكتبون « الجريدة للصبر حدود » ؟

ضحكتُ قائلة :

ـ عندئذ ستغضب (أم كلثوم) .

أودّعهم على أمل العودة لرؤيتهم مرة أخرى .

لم أعدهم بعدد من النسخ من الجريدة ، فإن العدد الذى قمت بالحوار معه كبير جدًا ، لدرجة لا تسمح بشراء كل هذه النسخ على حسابى الخاص ، أو أعطى جزءًا منهم وأترك الآخر ، والأستاذ يهتم بنسبة التوزيع ، إذا ارتفعت كانت المكافأة وإذا انخفضت كان اللوم والتقريع .

اتجهت إلى محطتى الأخيرة عم (حسونة) ، وجدته منتظرًا يتصفح الجريدة ، تقدمت إليه مرحبة به . طوال الطريق أفكر ماذا أقول له ؟ كثيرًا مما كنت أريد أخبرنى به الدكتور (محمد أحمد) وسبب قدومى هو الحفاظ على مصادرى بل والاهتمام بها .

ـ آسفة على التأخير . لم أتته من الحوار مع الطلاب إلا منذ دقائق ..

ـ أرأيت ماذا فعل أتباع العميد ؟

ـ أتقصد الرائد (محسن) .. إنها إجراءات أمنية ..

ـ كل ما يحدث فى الكلية يذهب إليه .. إنه يحاول القضاء على كل من يمت بصلة إلى الدكتور (حليم) ، حتى لو كان من الضعفاء أمثالى .

ـ ما رأيك فى كوب شاى ؟ على ما أتذكر شاى ثقيل سكر زياده ، صح ؟

يبتسم :

ـ صح يا أستاذة ..

يرتشف قليلاً من الشاى وأنا أشعر أن بطنى أصبحت كالبالونة المنفوخة الواجب تفريغها فى أقرب فرصة ممكنة ..

أسأله :

ـ ألم يعرف أحد إلى الآن أين زوجة الدكتور (حليم) ؟

ـ فى الحقيقة لا أحد يعلم ..

ـ أين عائلة الدكتور ؟

ـ لا يعرف أحد شيئًا عنهم ..

ـ أليس له أصدقاء ؟

ـ لا .. كان رجلاً « فى حاله » أقصد ليس منضمًا إلى جماعة نفاق أو رياء (يضرب جبهته بيده) ..

يا ١١١ ه أتعرفين من يعرف أكثر ؟ ليس إلا (فوزى) ..

ـ (فوزى) !!

ـ نعم (فوزى) كان أمين معمل بالجامعة ، واتهم بسرقة عينات وعقاقير من المعامل لحساب الدكتور (على حليم) ، مقابل مبالغ باهظة ، وتم جرد عهدته ، وبالفعل وجدت بعض العينات والعقاقير ناقصة يقدر ثمنها بآلاف الجنيهات ، سددها الدكتور (حليم) للكلية دفاعًا عن (فوزى) . وبعد طرده عمل مع الدكتور كمساعد له ، ولديه الكثير والكثير عن الدكتور إذا رأيته أبلغيه سلامى .. لا مؤاخذة يا أستاذة تأخرت على الأولاد .

ـ كم عددهم ؟

ـ سبعة فى مراحل التعليم المختلفة .

ـ أصغرهم كم عمره ؟

ـ بنت عمرها خمس سنوات .

أخرج من الحقيبة قطعة شيكولاتة :

ـ هذه هدية بسيطة لها منى لا تردّ يدى .

ـ ربنا يديم عزك يا أستاذة ، السلام عليكم .

جاءنى النادل . دون أن أرفع وجهى عن المنضدة ، طلبت كوب شاى آخر ناسية أمر بطنى المنتفخة بالمشروبات .. أخرج ورقة وقلمًا ، بدأت أرتب الأحداث فلم أر إلا أننى ألف وأدور حول نفسى ، كل ما لدى معلومات عن شخصية مصابة بجنون العظمة . وأقف أمام عدد من الألغاز المحيرة ..

ـ برغم مرض (فوزى) يتمسك بالدكتور !!

ـ سر اختفاء الزوجة !!

ـ أين تختبىء الكلاب ؟

ـ البقرات التى رأيتها بنفسى تدخل الفيلاّ .

لابد أنها .. لا .. لكن لم لا ؟! أتكون طعامًا للكلاب ؟

استنادًا إلى صحة كلام الدكتور (محمد أحمد) ، تصبح الصورة واضحة بعض الشىء ، إذن الكلاب والمعمل ومذكرات الدكتور فى مكان ما فى الفيلاّ ، الدليل ورقة (فوزى) . إذن إنها مصيبة .. مصيبة ..

لم أفق إلا على صوت الجرسون فزعًا يهرول نحوى متسائلا ..

ـ ماذا حدث يا آنسة .. ما هى المصيبة ؟

ـ آ آ .. آ .. لا شىء .. كم الحساب ؟

★ ★ ★

٧ ـ رجـل مقيد ..

لم يكن أمـامى بد من إقنـاع الأسـتاذ (صـابر أيوب) بإجراء حوار صحفى مع الدكتور (حليم) ، مدعية أنه شخصية قد تفجر قضية مهمة . قبل أن أختم كلامى ، قدمت إليه التحقيق الصحفى المعنون « المستقبل فى عيون طلاب الطب » .

مواصلة حديثى :

ـ ويمكن إثارة نقطة اختفاء الزوجة . وما رده عن الإشاعات المنتشرة فى كلية الطب ، وإذا بى أفاجأ بالأستاذ (صابر) يضع التحقيق على وجه المكتب منفعلاً :

ـ نحن صحفيون ولسنا وكلاء نيابة يا آنسة ..

وليس لك شأن باختفاء زوجتـه . ثم الجريدة ليس .. لهـا إلا كلية الطب .

أولاً : موضوع الاستنساخ ..

ثانيًا : المستقبل فى عيون طلاب الطب ..

ثالثًا : حوار مـع الدكتـور (علـى حليم) . يكفـى كل هذا ، ارحلى عن دماغى وارحمينى .

من نـبرة صوتـه يطل خوفه علـى شـخصى ، فهو يحـاول إبعادى عن المشاكل ، باستكانة وضعف :

ـ أتطردنى يا أستاذ (صابر) ؟

ـ امشى يا بنت ..

أغادر حجرته ، كلما علت شحنة غضبه ، كلما أثار قلقى عليـه ، فى الحقيقة أحبه كالمرحوم والدى ، كانا صديقين حميمين ، منذ صغرى كان يحملنى أبى لألعب فى منزل عمو (صابر) ، كنـت أفرح بحديقة الفيـلا ، أظل طوال النهـار أجرى وألعب ، أقلب البيت رأسًا على عقب ، وبرغم عرجه الخفيف إلا أنه يطـاردنى ويلاحقنى ، وأعود فى آخر النهار إلى المنزل أقص على والدتى ما فعلت ؟ وماذا رأيت ؟ فى جلسة صفاء مع أمى سألتها سؤالاً ظل يؤرقنى زمنًا :

ـ لماذا عمو صابر يعرج هكذا ؟

أتذكّر أننـى كنـت فـى الشـهادة الإعداديـة ، أجـابت بصـوت هادىء :

ـ الأستاذ (صابر) صديق والدك منذ زمن بعيد ، حتى قبل زواجنا ، كان مولعًا بمدام (منيرة) ، وعندما رفضه والدها أقام الدنيا وأقعدها ، حتى إنه نشر فى الأهرام « إلى عمى الحبيب أريد الزواج من ابنتك (منيرة) .. لأننى أحبها .. أحبك يا (منيرة) » ..

وكانت دهشة الجميع لهذا الحب ، حتى رئيس تحرير الأهرام توسط للأستاذ (صابر) فى الزواج من (منيرة) ..

تم الزواج بعد عامين من المفاوضات ، بعد الزواج بعام أنجب (سهيلة) ، كان الجميع فى غاية السعادة ..

(سهيلة) تكبرك بثلاثة شهور ، عندما أتمت عامين أو ثلاثة على ما أذكر ، فى أثناء عودتهم من المصيف ، انقلبت بهم السيارة فماتت (سهيلة) واستنصل رحم (منيرة) . وأصاب الأستاذ (صابر) عرج خفيف فى قدمه ، وكاد ينهار (صابر) لولا والدك الذى باشر أعماله ووقف بجواره ما يقرب من عام ، وعندما رآك (صابر) ، تعلق بك ، ومنذ ذلك الحين وهو يحبك كابنته (سهيلة) ـ رحمها الله ـ ..

بعد وفاة والدى وأنا فى الثانوية العامة لم انقطع عن زيارة الأستاذ (صابر) ومدام (منيرة) أبدًا . تنتهى الذكريات وأنا أمام فيلاّ الدكتور (حليم) ..

أدق الجرس مرتين فلا يجيب أحد ، بعد زمن أوشك اليأس أن يمتلكنى ، أرى الدكتور بنفسه يفتح الباب ، أتقدم إلى الداخل :

ـ مساء الخير يا دكتور . جئت لإجراء حوار معك ..

يبتسم :

ـ أهلاً أهلاً يا أستاذة ، تفضلى ..

يدفعنى الفضول للتساؤل :

ـ أين عم (فوزى) ؟

بلا أدنى اهتمام :

ـ مريض . كان يجب أن تستأذنى قبل المجىء ..

ـ آسفة ، لكننى حاولت الاتصال مرارًا وفى كل مرة لامجيب ..

ـ كان يمكنك ترك رسالة على (الأنسر) ، لا مانع عندى من إجراء الحوار ..

يستمر الحوار ونحن نتجه إلى حجرة المكتب ، خلال ثرثرته لم أفكر إلا فى عم (فوزى) ، أهو على قيد الحياة أم اختفى ، كما اختفت زوجة الدكتور ؟

نصعد الدرج .. كأن قدماى تعودتا على هذه الخطوات الرتيبة ، أنتبه على صوته :

ـ تفضلى ..

من الواضح أن الدكتور فى حالة لا وزن . يتجه صوب مكتبه :

ـ ماذا تودين سماعه ؟

ـ ببساطة حياتك ..

يستلقى على المقعد يحدق فى النجفة المعلقة :

ـ حياتى لاتهم .. (يزعق) أعمالى هى الأهم ، الإنسان تمجده أعماله وليس حياته ..

ـ الأعمال جزء لا يتجزأ من الحياة ..

ـ أنت تسمعين فقط ..

أخرج المسجل من الحقيبة على الرغم منى ، فهذه حالة لاتسمح بالكتابة أبدًا ، أحيانًا المسجل يصلح للدفاع عن النفس ، خصوصًا فى غياب عم (فوزى) .

ـ لا مانع .. أسمع ، لكن من حقى أن أسأل ..

يضرب وجه المكتب غاضبًا :

ـ لا .. (صوته خافت) سأقرأ الأسئلة من عينيك وأخبرك بها .

يحدجنى بنظرات مخيفة أثارت الرعب فى قلبى ، يخرج صوتى خافتًا :

ـ تكلم يا دكتور ..

ـ جميلة جدًا عيناك ..

آ آ آ ه دخلنا فى الكلام « التافه » ..

ـ دكتور نتحدث عن أعمالك ..

(يحتد) ..

ـ دعى الأعمال تتحدث عن نفسها ، خلال أيام سأنجز أهم أعمالى ، صدقينى ، سيكون للفقراء مكان على خريطة الأغنياء . عندما يموت كل أفاق ومرتش وتاجر مخدرات وغانية .. سيتغير وجه الكون . هذه رسالتى فى الحياة .

أتمالك نفسى وأسأله :

ـ ورسالتك هذه كيف ستنفذها ؟

يغضب مرة أخرى ..

ـ لا شأن لك . انتهت الزيارة . أراك بعد إنجاز أول أعمالى ، ستحتفلين به معى هنا ، فأنت المدعوة الأولى . (يصمت) .. والأخيرة ..

يغادر مكتبه ، وأنا باسطة يدى بالمسجل كأننى أتابعه ، وفى الحقيقة لخلق مسافة بينى وبينه . يردف :

ـ لك جائزة إذا عرفت موعد الحفل . عليك فقط تتبع الجرائد اليومية « باى .. باى » يا صغيرة ..

أردد فى سيرى « باى . باى ورحمة اللّه وبركاته » ، يدير المسجل بصوت صاخب ، يغادر الغرفة كأننى شىء لا قيمة له . صوته يودعنى :

ـ باب الفيلاً مفتوح يا ذات العينين الجميلتين ..

أغادر الفيلاً على الفور مرددة لنفسى :

ـ هذا رجل مخبول .. لا .. هذا الرجل أساس علم « الجنون » فى العالم .. عم (فوزى) ، أين هو ؟

الموسيقى الصاخبة تطاردنى .. لا أدرى ما الدافع ، الذى زج بى إلى الدوران حول الفيلاً . كلما مررت بالباب أبطأت الخُطى وتلصصت فى النظر .

فى هذه المرة رأيت السلسلة ، ملتفة حول الباب ، أرفع بصرى إلى غرفة الدكتور .. الظلام يسكن كل شىء ، إذا بى لاشعوريًا أقفز داخل الفيلاً .. أصبحت فى قلب عرين أسد أهوج ، أتجه إلى المطبخ ، بابه مفتوح ، أدفعه برفق ، أخطو خطوة ، خطوتين ..

الظلام دامس ، أخرج بطاريتى من الحقيبة ، أتحرك على ضوئها ..

قلبى تزداد دقاته ، كيانى غارق فى بحر العرق ، أطفىء البطارية وأنا فى الردهة الفاصلة بين المطبخ وحجرة عم (فوزى) ، أمسك مقبض الباب أحركه فى بطء ، مفتوح ، أفتح الباب . أهمس ..

ـ عم (فوزى) ..

أتحسس الجدار باحثة عن مفتاح النور ، أخيرًا أعثر عليه ، أنظر إلى الفراش ، لا أحد !! كبرق خاطف « فتشى الفراش » أقلب الفراش بحثًا عن أى شىء أسفل الفراش لا شىء ، فى ركن السرير بجوار الحائط ، أجد شريط كاسيت ، أرتب الفراش كما كان ، أدس الشريط فى حقيبتى ، ألتفت للخروج ، تصدر منى شهقة فزع ، فى الركن القريب من الباب عم (فوزى) خائر القوى ، غائب عن الوعى ، طوق حديدى فى رقبته ، وفى يديه طوقان آخران ، أقترب بحذر وكيانى كله يرتعد ، أشم رائحة لحم عفن بين أصابعه . أهزه برفق :

ـ عم (فوزى) .. عم (فوزى) .

لا صوت ولا نفس ولاحركة .. أحس بخطوات أقدام تقترب .. أطفىء النور ، أقفز صوب المطبخ ، أختبىء خلف الباب ، أرى الدكتور (حليم) يضىء غرفة عم (فوزى) . ثوان ويطفئه مرة أخرى .. لابد أنه يطمئن على عم (فوزى) .. يخطو بجوار الحائط عند (تابلوه) لمرأة عارية نائمة على إحدى شقيها ..

يتحدث :

ـ Open

يفتح الباب أوتوماتيكيًا ، يدلف داخله ، أسترق السمع ، يهبط درجًا . إذن هذا هو المخبأ . أحرك يدى فى الهواء فرحة لاكتشافى المخبأ ..

ماذا يخفى ؟ لابد أنها كلاب التجارب . كلاب !! يا نهار أسود ، أفتح باب المطبخ وأجرى فى الحديقة ، وصورة فى رأسى أن الدكتور دخل المخبأ ليأتى بالكلاب ، إنه رآنى وأنا أتسلل إلى الفيلاّ ، لا أدرى كيف قفزت بهذه المهارة من فوق الباب على مرتين متتاليتين ، أواصل الجرى إلى البيت ، كما تعودت من صغرى ، عند أى مصيبة أو كارثة تقابلنى أسرع إلى البيت ، وألقى بنفسى فى أحضان أمى وأبكى وأحكى . لكن هذه المرة ماذا أحكى ، وماذا أقول ؟ لو علمت أمى لانقلبت الدنيا رأسًا على عقب ، وعندها لن أخرج من المنزل أبدًا ، وتكون فرصتها لحبسى فى القمقم حتى يأتى ابن الحلال . ولها حق .

★ ★ ★

٨ ـ امرأة صلعاء ..

استغرقت فى نوم طويل ، من الصباح إلى الآن وأنا مغتاظة ، كأن العفاريت التبست كيانى ، الشريط لا يحمل أى شىء إلا كلمة واحدة فى منتصف الوجه الثانى بصوت الدكتور ، أكررها مرات ومرات ..

Open .. Open .. Open ـ

دقيقة واحدة تركيز . إذن نجح (فوزى) فى تسجيل هذه الكلمة ، وخبأها دون علم الدكتور ، فهى دعوة لدخول الفيلاّ مرة أخرى . متى أدخل ؟

(فوزى) كان العامل المساعد للدخول وللخروج .. إذن يجب الاعتماد على النفس فى سبيل المجد الصحفى . أول شىء أسجل هذه الكلمة فى ثلاثة شرائط ، أحتفظ بكل شريط فى مكان مختلف : نسخة معى فى الحقيبة فى الكاسيت ، نسخة فى المنزل ، نسخة فى مكتب الكمبيوتر والأخيرة فى الجريدة .

لم ترهقنى عملية النسخ بقدر عملية البحث عن شرائط أنسخ عليها الكلمة ، بدأت البحث عن ملف ، أحتفظ فيه بالأدلة ، « الورقة بخط (فوزى) ، الشريط » .. لامانع أن أنسخ الحوار ،

الذى دار بينى وبين الدكتور (على حليم) الليلة الماضية ، أقوم بنسخ نسخة أخرى ..

أين أحتفظ بهذا الدوسيه . مكتب الكمبيوتر فى درجى الخاص ، أبعد مكان عن الأيدى . شراء فيلم للكاميرا ، الميزانية لا تسمح . أنادى أمى ..

ـ ماما أريد شراء فيلم للكاميرا ..

تشاهد فيلمًا (لإسماعيل ياسين) وفى حالة انسجام تام ، لم تجب ، أكرر الطلب ..

تلتفت صوبى ، تنظر إلىّ وتلازم الصمت ..

ـ يا ست الكل أريد شراء فيلم للكاميرا ..

بعصبية غير متوقعة :

ـ ليس معى .. ميراث أبوك انتهى ..

أجلس بجوارها :

ـ يا ست الحبايب .. عمو (صابر) لم آخذ منه مليمًا منذ شهرين ، والحالة « جيم » ..

ـ ليس معى . أريد مشاهدة الفيلم ..

ـ إذن ليس هناك أمل . سأذهب إلى الحاج (أحمد) أقترض منه ثمن الفيلم ..

كأنى لم أقل أى شىء ، أتأهب للخروج ، قبل أن أغادر الباب :

أنا فى مكتب الكمبيوتر ..

ـ لا تتأخرى ..

الحاج (أحمد) يكتب بعض الأوراق ، أنقر على الباب الزجاجى ..

ـ أى مساعدة يا حاج (أحمد) ؟

يبتهج لرؤيتى ..

ـ أهلاً يا أستاذة ..

أصافحه ، يعترينى بعض الحرج ، يضحك :

ـ كم تريدين ؟

ـ أريد شراء فيلم للكاميرا ، وأمى ترفض لأنها ترفض عملى الصحفى ..

ـ عندما تكبرين وتصبحين صحفية لامعة ، ستذكرين أننى وقفت بجوارك ، لا تنسى ذلك ..

ـ لن أنسى .. أدع لى بالتوفيق ..

ـ ربنا معك .

دس يده فى جيبه ، ويخرج ورقة فئة خمسين جنيهًا .

ـ هذا كثير يا حاج . أريد ثمن الفيلم فقط .

ـ أنا أعطيك ثمن الفيلم ، أما الباقى حساب لك عندى من الأسبوع الماضى .

ـ شكرًا يا حاج .

بالفعل أنا فى حاجة لهذا المبلغ ، اشتريت فيلمًا للكاميرا ، وشريطًا للكاسيت ، وحجارة للكاميرا والكاسيت وبطارية الجيب وكيلو لحم ومادة مخدرة من الصيدلى ، الذى دهش لما أطلبه ، ولولا ثقته بى ما أعطانى الكمية الكافية .

جهزت العدة لاقتحام الفيلاّ . أحث الخطى إلى الفيلاّ . بعد غروب الشمس بدقائق استعددت للهجوم ، فأنا فى صراع مع الزمن ، السلسلة تحيط بضلفتى الباب الرئيسى . أضحك وأنا أقفز من فوق الباب متسائلة :

ـ هل أصبحت عادة عندى ، القفز من فوق الباب ؟

أدخل الكشك الخشبى . سجنى المفضل ، أبدأ فى مراقبة الفيلاّ لمدة ساعة .

الدكتور لا أثر له . أسرع الخطى إلى غرفة المكتب . أطل بحذر ، الغرفة مظلمة .

أمر بخفة إلى المطبخ ، أقبض على مقبض حجرة عم (فوزى) ، أسترق السمع ، لا صوت ولا همس ، أفتح الباب ، لا شىء .. الفراش خاوٍ ، أنظر حيث كان عم (فوزى) منزويًا .. لا أثر . أين ذهب ؟ تعبث أصابعى فى الحقيبة ، أعثر على الكاسيت ، أديره ثوان ، ينطلق صوت الدكتور :

ـ Open

يفتح الباب .. أتأمله ، باب إلكترونى الصنع ، مصمم على نبرة الصوت وكلمة محددة ، أضىء البطارية ، أمسكها بحذر ، أهبط الدرج ، ما يقرب من سبع درجات فى شكل حلزونى ، أشعر بضيق فى التنفس ، أجد نفسى أمام بهو على يمينى حجرتان ، أدفع باب الحجرة الأولى ، أسلط البطارية على الجدار باحثة عن مفتاح النور ، أعثر عليه ، تصدمنى الرؤية عم (فوزى) ينهش قطعة لحم نيئة ، يبتسم ضاحكًا ببلاهة ، ينفجر ضاحكًا بصورة هستيرية ..

يصمت ، ثم يعوى .. يعاود نهش قطعة اللحم ، يقطع جزءًا منها ، يلوكه بتلذذ ونهم .. عيناه حزينتان كلما التقت بعينى .

ـ مرحبًا يا صغيرتى .. إلى هنا ينتهى مصيرك ؟

أتابع عينيه وهى تنظر إلى مكان لم أنتبه إليه ، على يسارى فى ركن بعيد قفصًا آخر به امرأة بيضاء طويلة ، نحيفة القد ،

يصمت ، ثم يعوى . . يعاود نهش قطعة اللحم ، يقطع جزءاً منها ، يلوكه بتلذذ ونهم . .

كأنها جلد على عظم ، حليقة الرأس ، عظام الوجنتين بارزة ، هالات سمراء أسفل عينيها ، نظراتها غريبة ، ترتدى جلبابًا من نوع رخيص ، فضفاض ، تسألنى بعينيها :

مَنْ أنتِ ؟

ـ صحفية تبحث عن الحقيقة ..

ـ إذا ظللت تبحثين عن الحقيقة ستصل بك إلى هنا .. سيكون لك قفص بجوارنا ..

ـ من أنتِ ؟

ـ زوجة الدكتور ، أترين هذا الخادم الجبان ، كان يقيدنى ليحلق الدكتور رأسى بماكينة الحلاقة .. كان شعرى ناعمًا طويلاً (بصوت مرتجف) ، والآن كما ترين رأسى يشبه رأس رجل أصلع .

ـ لماذا يحلق الدكتور رأسك ؟

ـ ليحقننى بهرمونات مخلقة ، (بصوت خافت) إننى آكل الآن السمك النىء واللحم أيضًا .. تتشنج بعصبية وتلتصق بالجدار ، أين أنا ؟ تستكين . ثم تستطرد :

ـ لقد اعتدتُ على ذلك ، منذ عودته من أمريكا وأحواله تغيرت ..

ـ لكنى أعلم أنكما تزوجتما منذ زمن ..

ـ بعد زواجنا سجننى هنا ، لم يكن يشرف علىّ سوى هذا الجبان ، والكلاب أيضًا ، وبعد عودة الدكتور الحيوان من أمريكا بدأ فى حقنى بالهرمونات المخلقة ..

ـ لماذا جاء بـ (فوزى) خادمه الأمين إلى هنا ؟

تهمس مرتعدة :

ـ غضب عليه الدكتور ، لأنه أهمل رعاية الكلاب ، التى نهشت كفه ، (تضحك) ولأنه .. ولأنه كان يعاملنى كأنثى مع أننى صلعاء ، إلا أننى أجوع .. جوعًا أشد من جوعى للحم النّىء .

أتفهمين . كنت رقيقة معه جدًا ، لم أعضه إلا مرتين ، (بدلال) .

أليس كذلك يا (فوزى) ؟ فى ليلة ضبطنا الدكتور ، كنت أضحك ، أخيرًا أثرت غضب الجبل الثلجى .

تستدير داخل القفص :

ـ أترين كم أنا جميلة ؟ لماذا غضب الدكتور ؟ أتظنين أنه يحبنى .. لماذا تبكين ؟

أبكى . نعم أبكى ، أجفف الدموع المنسابة على وجنتى . تردف :

ـ فى الغرفة المجاورة الكلاب ، (أرتعد) لا تخافى إنها خرجت معه . لأول مرة يخرج بها . أتعرفين أين ذهب بها ؟

الليلة سنأكل أول بشرى . وسيعود بها .. منذ أيام أكلنا ثلاث بقرات فى وجبة عشاء .

تخمش الهواء ، تعوى كالذئاب . أنظر لـ (فوزى) منكمشًا فى ركن من أركان قفصه ، دون صوت ، أسأله ، انطلقت كلمات من فمه :

ـ قال لى ستكون طعامًا لكلابى فى يوم ما ، لن أنسى لك ما فعلت (ينحنى على ركبتيه) أخرجينى من هنا ..

تصرخ المرأة :

ـ إذا حاولت الاقتراب منه ، سيعضك فى يدك ، ربما يقطعها كما فعلت الكلاب معه .

أقف من ذهولى على صراخ المرأة ، أخرج الكاميرا وأسرع بالتقاط عدد من الصور لهما ، تردف المرأة :

ـ ليس لك غيرى يا (فوزى) ، لن تنقذك امرأة من هنا .

تضحك بهستيرية ، أتراجع للخروج لاشىء أمامى إلا الاتصال

بالشرطة . أصعد الدرج ، أرى الباب موصدًا أدير المسجل ، ينبعث صوت الدكتور :

- Open

أخرج من هذا السجن ، يغلق الباب أوتوماتيكيًا ، أقفز خارج الباب ، أتجه إلى ستوديو تحميض الأفلام . فى أسرع وقت ممكن .

★ ★ ★

٩ ـ محاولة فاشلة ..

أنتظر تحميض الفيلم ، لن أبلغ الشرطة قبل تفجير القضية ، وتحقيق سبق صحفى . إذن يجب أن أتأكد من سلامة الصور وأضمها إلى باقى الأدلة لمواجهة هذا السفاح . أرتب أفكارى لتفجير قنبلة الموسم .

على الصفحة سر اختفاء الدكتور (على حليم) .

فى الصفحة الثالثة والرابعة دكتور يجرى تجاربه على الكلاب والبشر .

دكتور يحقن زوجته وخادمه وكلاب بهرمونات مخلقة .

ما أحلى أحلام اليقظة حتى بعد منتصف الليل . يقطع تسلسل أفكارى وأمواج أحلامى رنين الهاتف . ألتقط سماعة التليفون .

ـ آلو ..

ـ أ .. نـ .. ا .. تـ .. ع .. بـ .. ا .. ن

ينقطع الخط عنوة ، صوت (فوزى) خادم الدكتور . أرتدى ثيابى على عجل .

أدس الكاميرا فى الحقيبة ، أستبدل بشريط الكاسيت شريطًا جديدًا .

أضع بعض الأوراق . أخرج قطع اللحم من الحقيبة ، تفوح رائحتها العفنة فى أرجاء الحجرة ، ألقى بها فى سلة المهملات . أخرج إلى الصالة قبل أن تمتد يدى إلى مقبض الباب . تقف أمى حاجزًا بينى وبين الخروج . يندفع صوتها صاخبًا مفزعًا :

ـ أنت مجنونة . كيف تخرجين الآن ؟ الساعة تجاوزت الرابعة صباحًا .

ألتفت إلى ساعة الحائط المعلقة أمام الباب مباشرة . الساعة الرابعة وثلث .

تلجمت . كنت أظنها الواحدة ، الواحدة ونصف ، كل هذا بسبب أحلام اليقظة ..

تواصل أمى سيمفونيتها :

ـ مَنْ اتصل بك ؟ ويطلبك للخروج ؟

ـ يا أمى .. عمل واللّه العظيم ..

ـ عملك أسود .. ماذا تعملين ؟ راقصة فى ملهى ليلى .

ـ يا ماما الراقصة تعود فى الرابعة إلى بيتها ، أنا أخرج فى الرابعة ..

تتميز أمى غيظًا ، يطل الغضب من وجهها :

ـ لن تخرجى ولو انقلبت الدنيا .. ادخلى نامى ..

أين أنت ؟ ماذا يقول الجيران ؟

وأعتذر عن حذف سيل الشتائم من أمى ، عند غضبها تخرج حمم بركانية حارقة للكرامة والمشاعر الإنسانية . وانسدت كافة الوسائل أمامى وإذا بى أقول لها :

ـ أستخدم التليفون ..

تحضر كرسيًا . تضع التليفون بيننا ، بعد أن أحضرته من غرفتى ..

ـ أمامى هنا . وأنا جالسة ..

لابد من المهادنة :

ـ أسرار عمل ..

ـ لا توجد أسرار . تحدثى ..

ـ لا يمكن ..

تهز رأسها نافية . إننى أحتاج لمحادثة الرائد (إبراهيم) ، كثيرًا ما أذهب إليه لإحضار أخبار الحوادث لجريدتنا ، وهو شخصية متعاونة جدًا . تجمد الموقف بإصرار أمى . أقترب منها وأقبلها :

ـ يا ست الكل أين ثقتك بى ؟

ـ أى ثقة تجعلنى أوافق على خروجك فى الرابعة صباحًا ؟

ـ لن أخرج كل ما أطلبه محادثة الرائد (إبراهيم) ..

ـ الصباح له عيون ..

أستشيط غيظًا :

ـ الصباح له عيون وله أنف وأذنان ، وكل شىء ، المهم أن أتصل بالرائد (إبراهيم) .

ـ أنا قلت لك لا .. لا ..

أنفخ متضجرة . تنظر لى بغيظ :

ـ عِنْد بِعِنْد ..

تحمل التليفون إلى حجرتها قائلة :

ـ « اخبطى » رأسك فى أى جدار ..

بالفعل كدت أفعلها لأنفس عن غيظى المكبوت .. أراقب أمى ، تجاهد النوم كأنها فى معركة حربية . أخيرًا غلبها سلطان النـوم ، أتسلل أحمل التليفون بهدوء وحذر من جوارها ، أسير على أطراف أصابعى إلى غرفتى .

أضغط أزرارًا ، يرتفع الرنين لمدة طويلة ، يتحرك القلق فى صدرى ، يرتفع صوت الرائد (إبراهيم) مغموسًا فى قلب النعاس .

ـ أنا .. صحيفة فى جريدة (الصبر) ، هناك كارثة !!

ـ خير إن شاء اللّه ..

ـ كلاب تقريبًا تأكل الناس ..

بانزعاج شديد وتعجب :

ـ نعم ؟!

يغلق التليفون فى وجهى . أتمالك أعصابى . قبل أن أتم ضغط أزرار الرقم تقبض أمى علىّ .

ـ قلت لا .. أقولها لك بالإنجليزية " No " ..

محاولة فاشلة . إحباط + غيظ = نوم ثقيل جدًا .

أستيقظ ، فى البداية لم أدرك الزمن . أنظر فى ساعة يدى ، الثالثة ونصف ، أنظر حولى :

ـ يااااه نمت كل هذا الوقت (أرفع صوتى) من اتصل يا أمى ؟

صوت التليفزيون يتسلل إلى غرفتى ، يعلو صوت أمى :

ـ الحاج (أحمد) وقلت له مجهدة ونائمة ..

أخرج إلى الصالة ، أحمل التليفون إلى حجرتى ، منتهزة فرصة اندماج أمى مع التليفزيون ..

أحك رأسى بعنف هامسة لنفسى :

ـ خيرًا فعلت ..

أخرج إلى الصالـة ، أحمل التليفون إلى حجرتـى ، منتهزة فرصة اندماج أمى مع التليفزيون ، أطلب منزل الرائد (إبراهيم) . يأتينى صوت زوجته :

ـ مساء الخير يا مدام ، أنا .. صحفية من جريدة (الصبر) . أريد التحدث إلى سيادة الرائد (إبراهيم) عن تحقيق صحفى مهم ..

تنادى (إبراهيم) بغيـظ وضيق ، أعلم أنها غيورة جدًا . وقد يشتعل البيت لهذه المكالمـة . لا وقـت للعواطـف الآن . يتحدث بصوت مراقب :

ـ أفندم ..

ـ أنا .. صحفية من جريدة (الصبر) ..

دكتور (على حليم) فى فيلاً بالمقياس فى المنيل ، يحقن الكلاب بهرمونات ، حتى تأكل الناس ، وأعرف ..

يقاطعنى بغيظ وضيق :

ـ نعم !!

ـ والله ما أقوله حقيقة ..

اسمعى يا .. .. خذى دُشًا ساخنًا وقرص ريفو وتغطى جيدًا بعد ساعتين ستكونين بخير ..

ـ أنا مستيقظة من النوم الآن ..

ـ إذن لم « تفيقى » بعد ..

يغلق السماعة . رجل قليل الذوق . لاملجأ إلا الأستاذ (صابر) .

★ ★ ★

١٠ ـ حافة الهاوية ..

أحمد اللّه على أن الحاج (أحمد) منحنى الخمسين جنيهًا ، أدخل ستوديو تصوير ، أقدم الإيصال ، يخرج الرجل الظرف قائلاً :

ـ به ٦ صور فقط .. صور لفيلم أم مسرحية ؟

أتناول الظرف :

ـ لا لمسلسل عربى ..

ينفذ صبرى باستلام المظروف ، أخرج الصور أتأملها . أمارات الفزع والخوف والبلاهة واضحة على وجه عم (فوزى) وزوجة الدكتور . رائعة هذه الصورة ..

(فوزى) يقطع قطعة اللحم النيئة بأسنانه . أعود إلى المصور :

ـ النيجاتيف معك أريد نسخة أخرى ..

يتعجب ، فلا أبالى بتعجبه ، وكأننى أفعل أمرًا عاديًا :

ـ فيلم ٣٦ صورة ..

أضع الحساب أمامه باكية ، لم يبق فى جيبى إلا عشرة جنيهات يتيمة وقليل من « الفكة » ..

أستقل الميكروباص إلى الجريدة ..

أصعب ما فى الحياة أن تصعد عشرة أدوار كاملة على قدميك .. السبب عطل فى المصعد .. كان المشهد مبهجًا !!

مهندس الصيانة وعماله فى حالة حرب ميكانيكية مع المصعد .

أسأل البواب :

ـ هل يستغرق الأمر كثيرًا ؟

ـ نصف ساعة يا أستاذة ..

استثقلت طول الانتظار فى ظل احتياجى للأستاذ (صابر) وسرورى بالصور ، ليعلم أننى صحفية ناجحة .. توهمت أننى أصعد سلم المجد درجة اثنتان ..

أخيرًا أصل للدور العاشر . ألقى بنفسى وصدرى يتهدج ، والعرق يتفصد من كل كيانى . لا أحد فى الجريدة ، منذ زمن لم أحضر اجتماع الجريدة ..

كنت أتمنى أن أجد شخصًا واحدًا « أدردش » معه فى أى شىء . أنادى الساعى بصوت ضائع .

ـ حسن .. يا حسن ..

لا مجيب . أقوم ، أتجه إلى المطبخ مع تحذيرات الأستاذ من دخول العاملات للمطبخ لأى سبب من الأسباب ما دام يوجد ساع . والآن لا يوجد ساع ..

أشرب كوب ماء بسكر . شىء من الانتعاش يثلج صدرى .

أطرق باب الأستاذ (صابر) ما إن وقعت عيناه علىّ ، حتى ابتسم ..

ـ مرحبًا بصحفية كلية الطب ..

دون استئذان ، ألقى بكيانى على المقعد ، الذى أمام المكتب . يتساءل :

ـ ما بك ؟ شكلك مرهق .

بافتخار :

ـ صعدت الأدوار كلها على قدمى .

يزعق :

ـ يا مجنونة ، أنا قلت لك إذا كان المصعد معطلاً لا تصعدى ، كل شىء ينتظر . أنت صغيرة ولا تشعرين بما تبذلين من مجهود ..

ـ أستاذى العزيز وحبيب قلبى . توجد مصيبة لها رأس ورجلان ، اسمها الدكتور (على حليم) .

يترك ما فى يده متسائلاً :

ـ (حسن) لم يعد ، أليس كذلك ؟

ـ أظن حتى إذا جاء سينتظر حتى إصلاح المصعد ..

يفصل التليفون ، يضىء المصباح الأحمر قائلاً :

ـ احتياطى ..

أفتح حقيبتى ، أخرج منها الصور ، أمد يدى إليه . أراقب ملامح وجهه ، يطفو سؤال على جبينه . أسرع بالإجابة :

ـ الأول عم (فوزى) خادم الدكتور . والثانية زوجة الدكتور . طوال سفر الدكتور كانت تعيش فى قفص فى الفيلاّ ، يشرف على طعامها وحياتها الخادم (فوزى) .. ظلت هكذا لمدة عامين ، وعند عودة الدكتور .

انطلقت أتحدث عن القضية بكافة جوانبها ، يمسك ورقة وقلمًا يخطط بهما بعض الأشياء . يخرج جريدة الأهرام من أحد الأدراج ، يفتحها على صفحة معينة .

ـ اقرئى هذا الخبر ..

ـ صفحة الحوادث ، فى صباح اليوم ..

« حادثة غريبة ، عثر على هيكل عظمى فى شقة رجل الأعمال (إسماعيل السيد) . المتهم فى قضية جلب المخدرات . شهود الحادثة . صعد رجل بهندام مهذب ، تفوح منه رائحة عطرة إلى شقة (إسماعيل السيد) ، الغريب أنه كان يصحب معه ثلاثة كلاب من نوع « الدوبرمان » ، لم يسمع أحد أى

صراخ استغاثة أو أى شىء غير طبيعى .. بعد نصف ساعة أو ساعة تقريبًا . خرج الرجل ومعه الكلاب .. عند باب العمارة صافح الزوجة وسألها عن صحتها . عند سؤال الزوجة أدلت بأنه طبيب متطوع لعلاج رجل الأعمال (زوجها) . ما زال البحث جاريًا عن هذه الشخصية الغامضة ..

أما الزوجة والأطفال فهم فى حالة انهيار تامة بمشاهدة جثة الأب ، أو بالأدق « الهيكل العظمى .. »

تجمدت ملامح وجهى .. فقد عقلى استيعاب هذه الحادثة ، يتحدث الأستاذ (صابر) بحماس بالغ واهتمام :

ـ هذا يفسر لك جملته فى آخر لقاء عن الحفل وذكائك فى اكتشاف موعده . وقول الزوجة عن أول بشرى تفتك الكلاب به ..

علينا أن ننطلق ..

أقف حاملة الحقيبة :

ـ بالفعل أنا محتاجة إلى الانطلاق إلى الحمام ..

يضحك :

ـ أنا سأنتهى من كتابة هذه الورقة وسأنتظرك ..

أدلف إلى الحمام الصغير بالقرب من باب الشقة . يرتفع صوت جرس الباب .

كنت متوقعة شخصًا غريبًا فـ (حسن) الساعى لايدق الجرس . إنه ـ يا واقعة سوداء ـ الدكتور (على حليم) ..

أرتعد خوفًا ، أتحرك بخف حنين كما يقولون ، أنظر من ثقب الباب ..

ـ إنه هو . الحمد للّه بدون كلاب ..

أحسن فرصة للهجوم على الفيلاّ والخروج بـ (فوزى) والزوجة ، إلى أقرب قسم شرطة . المصعد يعمل . أستقله هاربة من لقاء هذا الحيوان ..

أستقل (تاكسى) إلى الفيلاّ لتوفير الوقت ، فالوقت من ذهب . أتذكر وأنا فى التاكسى مفتاح (فوزى) ، الذى تركه عند باب الكشك وقت سجنى بداخله . لم أتركه .

لم نسيته طوال هذا الوقت ، ربما سرد القصة كاملة على الأستاذ (صابر) ذكرنى به ، أفتح الباب ، صوت فى أذنى « الكلاب الجائعة » ترددت لحظة . توكلت على اللّه والمجد الصحفى مرسوم أمام عينى ، السكوت يحتوى كل شىء . أتجه صوب حجرة المكتب أتابع من خلف الظلام لا شىء ، ولا مجال للدخول .

كيف الدخول ؟ سؤال يحتاج إلى إجابة عملية . فى الأفلام لابد من نافذة أو باب مفتوح أو البطل يحمل (طفاشة) ، هنا

لا شىء مفتوح ، ثانيًا لا أحمل (طفاشة) ولا أعرف استخدامها أو من أين تشترى ؟! نافذة المطبخ مغلقة لا توجد قطعة من الحديد ، أهشم بها الزجاج . فكرة أطوح الحقيبة فى الهواء مرات ومرات ثم أدفعها ، تجاه زجاج باب المطبخ ، أطلق صرخة الفوز «يا هووووه» أمد يدى لأعثر على المزلاج ، أحركه ، أدلف إلى الداخل على ضوء البطارية ، أتجه إلى (التابلوه) ، أبحث عن الكاسيت أضعه أمام (التابلوه) تصدر كلمة :

ـ Open

أحمد اللّه على أن تطوير تكنولوجيا هذه الأبواب لم يصل إلى الدكتور . فى آخر ما صدر من هذه الأبواب ، يرفض التحرك إلا بصوت الشخص ذاته . حتى لو كان مسجلاً ..

يفتح الباب ، أتحرك على ضوء البطارية ، أهبط السلم الحلزونى . أبحث عن مفتاح النور للحجرة الأولى .

القفصان خاليان . أين عم (فوزى) والزوجة ؟ أيكون الدكتور اكتشف دخولى إلى هنا وتم نقلهما إلى مكان آخر أكثر أمنًا . كان يجب إبلاغ الشرطة . ملعون المجد الصحفى . حياة البشر أهم . أنا إنسانة أنانية . لا وقت للوم الذات وتوبيخها . أدلف إلى الحجرة الثانية ، أبحث عن مفتاح النور . أرتعد . ما هذا ؟ كلاب من نوع الدوبرمان .

خمسة يطوفون داخل قفص كبير ، يرفع أحدها رأسها إلى أعلى ..

أفزع من منظر أسنانه ولسانه المتحرك ، تتكوم أمامى ، عيونها تبرق بشرر الجوع . خمسة كلاب . لا صوت لها ، تمتد أرجلها للخارج تخمش الهواء . يصيبها اليأس من النيل منى . أصورها . ماذا بين أقدامها ؟

تتفرق فى القفص ، أحدها يلعق عظامًا .. عظامًا بشرية . بالقرب من القفص الحديدى ، فى أقص الركن «فردة» حذاء .. حذاء الخادم . وفى داخل القفص فستان باهت ، فستان ، كانت ترتديه الزوجة . أواصل التصوير ، أضغط على أعصابى ، محاولة التماسك ، برباطة الجأش ، أصور فردة الحذاء وكلبًا يلهو بها ، والفستان يرقد بجواره كلب آخر ، أضع الكاميرا فى الحقيبة بلاوعى ، ودموعى تنساب . غصة فى حلقى . الصراخ كرة نارية محبوسة فى حلقى ، جسدى ينتفض ، كل شىء بداخلى ينتفض . أعود بظهرى متخيلة الكلاب تغادر القفص وتجرى صوبى ، أرتطم بالسلم . أقع عليه . أصعد على يدى وقدمى زاحفة . همهمة تصدر منى مخلوطة بنحيب متقطع ، أدخل المطبخ . أجرى فى الحديقة ، نسمات هواء الليل الباردة كأنها أذناب أبقار تلسعنى . أفتح الباب ، أجرى فى الشارع ، شىء ما يطاردنى . الكلاب تقلب القفص تعدو فى إثر رائحتى . لا ..

تتفرق فى القفص ، أحدها يلعق عظامًا . . عظامًا بشرية . . بالقرب من القفص الحديدى ، فى أقصى الركن (فردة) حذاء . .

الدكتور يراني وأنا أغادر الفيلاّ يطاردني ، أجري بكل ما لدى من قوة ، الأنظار تتابعني . لا أرى شيئًا أمامي ، جسدي ينتفض ، صدري يتهدج . دموعي تنساب بغزارة ، نحيبي يعلو شيئًا فشيئًا . أنامل الدكتور توشك أن تمسك كتفي . لا .. لا .. أحد الكلاب يقبض على قدمي أصرخ .. أصرخ .. أصرخ بصورة هيستيرية . لا أرى شيئًا سوى بوستر كبير ، كلب يلعق العظام وفردة الحذاء ، وآخر نائم بجوار الفستان ، والبقية تكشر عن أنيابها وعيونها تهددني بنفس المصير . أتعثر في شيء ، أتكور على الأرض حاضنة الحقيبة ..

الذعر يشملني بردائه . أقدام تتجمع حولي . أواصل صراخي كأنني أستغيث بشخص يقطن الطرف الآخر للعالم .

★ ★ ★

١١ ـ هزيمة وانتصار ..

آآآه .. دوار في رأسي . جسدي يؤلمني .. أين أنا ؟

أنظر في المرآة المجاورة للفراش ، شاحبة الوجه . أجتهد في استيعاب ما حولي . أزيح الغطاء . أضغط جرسًا بجوار السرير . دقائق ، وأسمع طرقات خفيفة على الباب ، يطل وجه أمي ، شاحبًا أيضًا . تجري إليّ . أعتدل جالسة ، تحضنني :

ـ حمدًا لله على سلامتك ..

ـ أنا بخير .. أنا بخير ماذا جرى ؟ أين نحن ؟

أنظر إلى عينيها ، صفحة من الدموع في عينيها ..

ـ ما بك يا أمي . أنا بخير ..

طرقات على الباب . تلتفت أمي ..

ـ تفضلي يا مدام (منيرة) ..

تدخل مدام (منيرة) والأستاذ (صابر) يحملان « بوكيه » ورد جميلاً ، يتحدث فرحًا :

ـ آه . ألف حمد لله على السلامة ..

قالها وهو يضع بوكيه الورد على الكومودينو بجوارى .
يقبل جبهتى ثم تقبلنى مدام (منيرة) :

ـ لا أتذكر شيئًا أو بالأصح لا أعرف ما جاء بى إلى هنا .

يجلس على مقعد ضاحكًا :

ـ أنت كنت نائمة لمدة ثلاثة أيام تقريبًا ..

كنت مصابة بانهيار عصبى نتيجة لصدمة عصبية . ولكن الحمد لله مرت بسلام . كدت تقلبين المنضدة على الجميع .

ـ لا أفهم .

يواصل حديثه :

ـ ستفهمين . نبدأ من ساعة خروجك من المنزل .

أم .. سنبدأ من حيث فقدت التحكم فى الظروف .. كان خطؤك الأكبر عدم الاتصال بالشرطة ، وصبرك طوال هذه المدة ، حتى تحميض الأفلام والمجىء إلىّ فى الجريدة .

آخر ليلة تشاجرت فيها مع أمك ، حول الخروج لإنقاذ (فوزى) ، كان رفض أمك هو طوق النجاة من موتك . اندفاعك لم يجعلك تفكرين كيف يتصل بك (فوزى) وهو مسجون داخل قفص .

أصابتنى صدمة لما أسمع . يردف الأستاذ (صابر) :

ـ الدكتور (على حليم) بعد عودته من ارتكاب أول جريمة ، كانت زوجته فى حالة هستيرية ترقص وتغنى وتصرخ ، وخلال صراخها أخبرته أن أمره انكشف ، وأن الصحفية ذات العينين الجميلتين ستكشف أمره خلال أيام ، لقد وصلت إلى هنا .. حيث يقف .

اشتعل الدكتور غضبًا ، وفى ثورة غضبه زج بزوجته إلى الكلاب الخمسة فلم يبق منها إلا الهيكل العظمى .

آه بدأت أرتب الأحداث :

رؤية الهيكل العظمى ..

صراخى فى الشوارع ..

وجرىى ، ثم أتكوم فى ركن مرتعدة خائفة ..

ـ طلب من (فوزى) أن يطلب رقمك ، ويحثك بصوت واهن وخافت بعبارة « أنا تعبان » .

ثم حقن الكلاب بهرمونات الجوع . واشتد سعار الجوع فالتهمت (فوزى) .

على فكرة هذه الكلاب شرسة جدًا . لكن الدكتور يرتدى بدلة غريبة الصنع إذا حاول أحد الكلاب مهاجمته يصعق بتيار كهربى ، لذا تسير الكلاب معه خاضعة . لنعد إلى قصتك معه ..

أتساءل :

ـ هل ما تقول حقيقى ؟

ـ هذا الرجل لا يعمل وحده ، إنه يعمل ضمن منظمة عالمية ، أو إذا أردت تعبيرًا أدق أخطبوط عالمى ..

(محذرًا) : اصمتى قليلاً ولا تقاطعينى .

ظل الدكتور (على) فى انتظارك طوال الليل : بعد الفجر غلبه النعاس عندما استيقظ ، استقل سيارته واتجه إلى منزلك . وسأل عنك فلم يجدك . فطلب شايًا من والدتك ، وأعدت والدتك الشاى . خرجت تحمل كوب الشاى فإذا به داخل غرفتك يعبث بأشيائك ، تسرب الشك إلى أمك وطردته على الفور ، فأجابها معتذرًا :

ـ آسف توجد أوراق لدى ابنتك أحتاج إليها ، والأمر عاجل جدًا . لذا سأزوركم ليلاً ومعى أولادى ..

نظر إليها ضاحكًا :

اتصلت والدتك بنا ، وفى كل مرة جرس ، ولا مجيب لو تتذكرين كنت فاصلاً خط التليفون وانزعجت والدتك ..

لألتقط من طرف الحديث :

ـ وجاء الدكتور إلينا فى الجريدة ، وتسللت أنا خارجة ..

ـ خيرًا فعلت ، لأنه إذا وجدك كان سيضطر لقتلى وحملك عنوة أو بأى وسيلة إلى فيلته لتعترفى له بكل شىء ، ثم يرميك إلى كلابه المسعورة وتنتهى قصتك .

ما كاد يفرغ من تقييدى فى مقعدى ، حتى جاء (حسن) ونال منه ضربة على أم رأسه ، وقيده بجوارى ، وكممه مثلى ، وقال لى بغيظ عن اكتشافك لأسراره وكيف أجبر (فوزى) على الاتصال بك ، وكيف تخلص من (فوزى) وزوجته . وأردف حانقًا :

ـ لابد أن طفلتك الصغيرة ذهبت إلى الفيلاّ ..

اندفاعها وحبها للمجد يصنع قبرها . سأعود إليك فى الليل ومعى أولادى أتعرفهم ؟ سأعرفك عليهم ، نعمت مساءً ..

غادر الجريدة .. بعدها بدقائق وصلت والدتك إلى الجريدة وسألت البواب عنك ، فأجابها أنك بالخارج . وقالت لنفسها :

ـ أسلم على الأستاذ (صابر) ..

فسألت عن وجودى فأجابها :

ـ البك لا يخرج دون أن يمر علىّ وأراه .

فصعد معها إلى الجريدة ، ودق الجرس مرة ومرة ..

لحظتها تحرك (حسن) ودفع مقعدًا على الأرض فأصدر صوتًا مزعجًا انتبه له البواب ، وبمساعدة الجيران اقتحموا الجريدة ، وكانت مفاجأة للجميع ، أقسم لك إنهم لو تأخروا دقائق لخرجت روحى وراحت هباء ، وما كادت يدى تتحرك ، حتى

أوصلت خط التليفون ، واتصلت بالرائد (إبراهيم) فى مديرية أمن الجيزة . بعد حضوره فوجىء بالصور . انفجرت أمك فى البكاء والنواح . فى أقل من ربع ساعة كانت الدنيا انقلبت عند الجريدة . ركبت أمك معى فى سيارتى واتجهنا إلى المنيل ، لنجد أن الشرطة تحيط بالفيلاّ وفى انتظار إذن النيابة ، اتصلت بعدد من المصورين لتغطية التحقيق الصحفى . أصدر الضابط أمر الاقتحام تحت الأضواء الكاشفة ، التى أغرقت الحديقة . كنا واثقين أن الدكتور بالداخل قبل مداهمة الفيلاّ . قطع الدكتور التيار الكهربى . ما كاد رجال الأمن المركزى يخطون داخل الفيلاّ حتى فوجئنا بأحد الكلاب يهاجم أحد الجنود ، فتمت السيطرة على الموقف وقتل الكلب ، كانت المشكلة أننا لا نعلم عدد الكلاب ، توخينا الحذر فى الهجوم ، ولمدة ساعة تقريبًا ونحن فى حالة من القلق والترقب ، بين فينة وأخرى نقضى على أحد الكلاب ، واجتزنا الحديقة إلى داخل الفيلاّ ، تم تمشيط المكان والقضاء على خمسة كلاب . أسأل نفسى أين ذهب الدكتور ؟ وأين أنت ؟ سألنى الرائد (إبراهيم) :

ـ أين ذهبت ؟

أجبت :

ـ لم يبق إلا (التابلوه) أمام المطبخ ..

توجهنا إلى هناك فلم نجد لها أثرًا ، وإذا بى شعوريًا أناديك . أوشكت أعصابى على الانهيار . باستخدام جهاز كاشف الذبذبات حددنا مكان الباب وأبعاده .. لم يكن أمامنا بد من تفجير الباب .. فوجئنا بدخان كثيف ينبعث من البدروم ، وانهارت قواى ، أحمد الله على أن أمك لم تكن معنا فى الداخل لحظتها ، كنت واثقًا من وفاتك أو اختفائك إلى الأبد .. هبطنا السلم الحلزونى نبحث عن جثة الدكتور وجثتك . فلا أثر لكما .

سألت الأستاذ (صابر) :

ـ ماذا حُرق فى المعمل ؟

ـ لا أحد يدرى .. ربما مذكرات الدكتور . أو أى شىء يكون هدفه إخفاء الأدلة ، أو تعطينا أكبر قدر ممكن من الوقت . وفى الحقيقة نجح الدكتور فى ذلك ، اكتشفنا أن البدروم بطول الحديقة فى نهايته ممر طويل . ينتهى بباب حديدى . ولا أقول ما الوقت الذى استغرقناه فى فتح الباب ؟ وحضور رجال البحث الجنائى وتتبع أثر ما حدث وعدد من الأطباء .

أجمع كل هؤلاء على أن هذه الفيلاّ تم تجهيزها بأعلى مستوى علمى منذ زمن ..

يبقى النفق الذى اكتشفناه بعرض الشارع ، وكانت الصدمة

ـ لكن كيف عثرتم علىّ ؟

ـ فى الواحدة والنصف تقريبًا عدنا إلى بيتك ، لنجد رسالة ملصقة على الباب باسم الدكتور (هاشم رضوان) ، ورقم تليفونه ، يطلب الاتصال به فور عودتنا ..

وأجريت معه اتصالاً هاتفيًا . انشرح له صدر أمك :

ـ .. على قيد الحياة وفى مستشفى خاص .

أسرعنا إلى المستشفى . استقبلنا الدكتور (هاشم رضوان) وهدأ من روع أمك .. أفهمنا أنك مصابة بانهيار نتيجة صدمة عصبية ، بالإضافة إلى أنيميا ، وتناولت مع الدكتور القهوة وأبديت استعدادى لخدمته جزاء ما صنع . فكان رجلاً فى غاية الذوق والرقة . لم يطلب أى أتعاب لعلاجك أبدًا . وهأنت بخير ..

توالت الزيارات علىّ ، أكثر شخص أود لقاءه الدكتور (هاشم) ، فى لقائى معه شكرته . جاءنى الرائد (إبراهيم) وزوجته ، والحاج (أحمد) صاحب مكتب الكمبيوتر ، و (حسن) ساعى الجريدة . فلم أجد بدًا من إخبار الأستاذ (صابر) بمكان باقى الأدلة . ينطلق منه اللوم الشديد لسوء سلوكى ، لا أنكر أننى أستحقه :

الكبرى أن ينتهى النفق فى بدروم آخر للعمارة المجاورة لفيلاّ الدكتور (على حليم) .

أصرخ مندهشة :

ـ أتقصد الدكتور خرج منذ زمن طويل ؟

يجيب الأستاذ (صابر) :

ـ لم يخرج من الفيلاّ فقط ، بل خرج من مصر كلها هذا ما أرجحه .. ولكن كيف ومتى ؟ لا أحد يعلم .

بعد خروجنا من بدروم العمارة المجاورة ، أوشك الرائد (إبراهيم) على الجنون .. مكثت فى البدروم دقائق ، شد انتباهى ورقة ملصقة باللصق ، فناديت الرائد (إبراهيم) . أشير إليها :

إلى الصحفية .. اللعينة :

هناك من يساعدنى فى أبحاثى وأعمالى فى مصر وخارجها ، وخلال قراءتك لهذه الورقة سأكون خارج مصر ، ولن أنسى لك أبدًا أنك أجبرتنى على حرق أبحاث عشر سنوات ، والقضاء على حلم حياتى ، وموت كلابى العزيزة .. يا صغيرتى حتمًا سنلتقى قريبًا ، تذكرى قانون حمورابى .. العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم .

ـ كان يجب تقديم هذه الأدلة للشرطة لاتخاذ إجراءاتها .. يبقى أمل واحد فى إنقاذك من هذا المأزق .

لا أدرى ما هذا الأمل أو كيف تصرف الأستاذ (صابر) ، انتشر اسم جريدتنا فى مستشفى الدكتور (هاشم) الخاصة ، تنفرد جريدة (الصبر) بنشر القصة الكاملة مدعومة بآراء وصور ، كان بالفعل سبقًا صحفيًا لامثيل له مدعومًا بالصور ، والورقة بخط الخادم (فوزى) . تحليل الدكتور (على حليم) نفسيًا .

بعد تماثلى للشفاء كان كل مَنْ فى المستشفى يودعوننى .. يبقى جرح فى قلبى .. حبى للشهرة والمجد ، دفع (فوزى) حياته ثمنًا لما أنا فيه . هل كان يمكن إنقاذ زوجة الدكتور ؟ فى الحقيقة أعترف بأنى أخطأت ، ربما لقلة حيلتى . ربما لاندفاعى فى محاربة الدكتور . هذه الحقيقة أقولها لأول مرة . أتنسم الهواء فى شقتنا ، أنظر من بلكونة حجرتى أتابع الناس وهم يسيرون إلى أعمالهم ، ومنادو سيارات الميكروباص المتجه إلى الجيزة ..

« جيزة .. جيزة »

تدخل أمى حاملة بوكيه ورد جميلاً منسقًا ، أقرأ ما فى الكارت :

إلى الصحفية .. اللعينة
حمدًا للّه على سلامتك
لأول مرة أرسل وردًا لعدوى
أتمنى أن تذكرنى دائمًا
حامورابى

أنفجر ضاحكة . والسؤال الأخير يطن فى رأسى : أين اختفى الدكتور على ؟

إلى هنا انتهت قصتى مع الدكتور على ، ربما ألتقى به يومًا وربما لا نلتقى .

وعندما أخوض مغامرة جديدة . سأكتب إليكم . ربما بعد دقائق من ذهابى إلى الجريدة ، وربما بعد شهور ، وربما بعد سنة ، ولكن ما أثق به هو أننى سأكتب إليكم مرة أخرى ..

وحتى هذه المرة إلى لقاء

(توتة)

(تمت)

رقم الإيداع : ٩٩/٨٩٤٧

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

في كل رواية متعة دائمة !!

مصطفى محمد سليمان

مغامرات صحفية

كلاب جائعة

..... ينهش قطعة لحم نيئة .. يبتسم ببلاهة .. ينفجر ضاحكًا بصورة هيستيرية .. يصمت ثم يعوى .. يعاود نهش قطعة اللحم .. يقطع جزءًا منها .. يلوكه بتلذذ نهم .. عيناه حزينتان كلما التقت بعينى ..

مرحبًا ياصغيرتى إلى هنا ينتهى مصيرك .

مطابع العالم العربي

الثمن في مصر ٢٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم